طه عبد الباقي سرور

أبو عبيدة

شركة مكتبة ومطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

طه عبد الباقي سرور

أبو عبيدة

شركة مكتبة ومطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى ١٩٤٦

الاهداء

الى معالى ابراهيم دسوقى أباظه باشا

حببنى فى أبى عبيدة أنه كان عربيًّا مجاهداً ، ومؤمناً مثالياً ، وعبقريًّا ملهماً . حمل راية الإسلام والعروبة إلى ميادين المجد والنصر .

وحببنى فى معاليكم تلك الروح العربية المؤمنة المهتدية بهدى الإسلام المتأدبة بأدب القرآن .

فأحببت أن أجمع بين الحسنيين تقديم البطل العربى الكبير إلى العالم الإسلامى . وإهداء تراث المجاهد الأمين إلى الرجل النبيل المجاهد ، لنصر العروبة وخلود أدبها ومثلها .

وفى التقاء جلال الماضى بنبل الحاضر ، بشير خير ويمن طالع للعروبة المتطلعة لغد كريم مجيد ؟

طه عبد الباقى سرور

القوى الأمين

« قدم وفد نجران على النبي صلى الله عليه وسلم. فقالوا: يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه.

فقال : والذي بعثني بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين، وردّدها ثلاثا.

ثم قال : قم يا أبا عبيدة ... »

بسم الله الرحمن الرحيم

وثبة الأبطال

كان قلب الإنسانية الراجف المتعب يتجه إلى السماء مترقبا يوم تأتى بوحى جديد ، وكان الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض .

وتهامس الملأ الأعلى بأن الروح الأمين يعد أجنحته الملائكية لرحلة إلى الكوكب الأرضى يحمل آخر رسائل السماء إلى بنى الإنسان ، قرآنا عربيا يهدى إلى الرشد ، ويسمو بمعانى الوجود .

وهبطت الرحمة فأشرقت الجزيرة بنور ربها ، وماجت شعاب مكة بذلك النور .

وبين الجبال والرمال حيث كان محمد العربى الأمى ، يتبتل ويناجى ويرصد السماء من غار حراء ، ضم جبريل إلى صدره المصطفى ، وأوحى إليه من آيات ربه ما أوحى .

ودوت أجراس التاريخ تبشر بالعهد الجديد ، بعث النبي العربي بلواء التوحيد هاديا ومبشراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

وكان بعث يؤيده وحى ، ويحمل لواءه نبي ، ويقوم على جوانبه أبطال وهداة .

وكما تتفتح الزهور على أشعة الشمس فتشيع العطر ، وتلهم الجمال ، كانت القلوب والأرواح تتفتح على آى الرحمن ، فينبعث منها الإيمان والفداء ، فى أنبل صور الإيمان والفداء .

وأحدث الإيمان معجزته الكبرى ، معجزة خلق الأبطال ، فقد استطاع القرآن فى صدر الإسلام أن يكون مدرسة وبيئة ، وأن يهيئ جوا ملهما ، واستطاعت البيئة القرآنية أن تنبت ألوانا من الرجال ، وألوانا من العباقرة والأبطال .

كان للقرآن فى صدر الإسلام بيئة متميزة بخصائص كاملة واضحة ، ليست بيئة المفسرين والفقهاء ، وإنما بيئة الإيمان والفداء .

كان العربي يسمع آية الجهاد فينبعث للدنيا فى يدٍ سيف وفى الأخرى قرآن ، فإما الشهادة والجنة ، أو النصر والعزة ، ويسمع آية التوحيد ، فيرى الله خالق كل شيء ، متمثلا فى كل شيء ، إليه تتجه القلوب والعقول وإليه تصعد الأعمال ، وعنده الجزاء والثواب .

كان العربي غير مزدحم الفكر والقلب بتلك المخلفات التى أفقدت المتأخرين الإيمان والبطولة كان لا يشغل نفسه بالبيان والبديع والاستعارة ، ولا بحروف الجر والإنابة ، ولا بالمتشابهات والمتشاكلات .

كان يستمع إلى القرآن بقلبه وروحه ، فتنبعث مشاعره وأحاسيسه حية متدفقة جياشة بالصراع والقوة ، جيشانها بالإيمان والطاعة .

كان يسمع فى جرس القرآن صوت الله ويشاهد بين كلماته دعوة الرحمن ، ونور الإيمان .

كان القرآن لديه عبادة وجهادا على أبسط ما تكون العبادة وضوحا وإشراقا وعلى أبسط ما يكون الجهاد غاية وهدفا .

واستطاع القرآن على هذا الضوء أن يكون لأتباعه معارف وإلهامات قرآنية ، واستطاعت هذه المعارف والإلهامات أن تسمو بعقولهم وتفكيرهم سموا سبقوا به أعرق الحضارات الفكرية فى التاريخ . كما أوجد القرآن لأتباعه مثلا عليا قرآنية ، وعلمهم أن الحياة الحقيقية هى تكريس قواهم لتحقيق تلك الأهداف ، فيحمل المؤمن سيفه فى سبيل مثله الأعلى ليبلغه أو يموت دونه لا تلهيه أمواله وأولاده ولا جاهه ومتاعه عن الجهاد فى سبيل الله .

وقد حدد القرآن معانى الجهاد ، فيقاتل المرء ليتظاهر بالبطولة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل لغير هذا وذاك من الأسباب ، فلا يلتفت إليه القرآن ، إنما الشهيد المجاهد ، من يقاتل فى صمت وفداء ، لتكون كلمة الله هى العليا ، ذلك هو الهدف والفيصل ، وهذا هو الميزان والصراط المستقيم .

تلك هى البيئة التى أوجدها القرآن ، وتلك هى البيئة التى أنجبت الأبطال ، ومذاهب العلم الحديث تقرر أن العقيدة هى قوام الحياة المادية والفكرية ، فهى التى تكون الأخلاق والصفات وتكون المشاعر والانبعاثات ، بل إنها لتطبع ملامح الوجه وحركات البدن بطابعها وسماتها .

وقد طبعت البيئة القرآنية أبطالها بسمات واضحة من الأخلاق والمبادئ هى أخلاق القرآن ومبادئه .

ولهذا تميز رجال الطليعة الأولى من البعثة المحمدية بألوان من البطولة والفداء ، وألوان من التضحية و إنكار الذات ، وألوان من الرحمة والإيمان لم يعرفها التاريخ لغيرهم من بناة النهضات والحضارات .

وتميز هؤلاء الأبطال بأن العبقرية فيهم كانت امتدادا لما يشبه الوحى وامتدادا لما يشبه الشعاع المحمدى .

كانت البعثة المحمدية تجديدا للحياة فى سائر ألوانها ، وتطهيرا للإنسانية فى جميع نواحيها ، كانت آخر رسائل السماء وأتمها ، كانت جهادا للانتقال بالإنسانية إلى حياة أطهر وأكمل ، فكان لا بد لهذا البعث الشامل من أبطال مجاهدين مصلحين ليتولوا توجيه الدنيا إلى الصراط المستقيم .

كان محمد النبى رسالة السماء إلى الناس كافة ، فاتسعت آفاق تعاليمه لأن تجذب إليها عناصر القوة فى الناس كافة ، فالثائر يلتف حوله الثوار ، والفيلسوف يحيط به الفلاسفة ، والمشرع يلوذ به المشرعون ، والنبى الحواريون ولكن محمدا صلوات الله وسلامه عليه أحاط به كل هؤلاء .

كان لهم ملهما وكانوا له أمناء ودعاة ، كان شعاع النبى كأنه مفتاح قدسى طرق باب الحياة السحرى ، فتواثب من خلفه الأبطال والهداة .

ذلك طابع الرسالة المحمدية ، بل تلك هى معجزتها الكبرى التى تميزت بها عن الرسالات السماوية . والانبعاثات الأرضية .

جاءت الرسالة الموسوية فيها هدى ونور ولكننا لم نعرف لها بطولة الفاتحين ولا عبقرية الواثبين .

وجاء عيسى صلوات الله عليه فكانت تحيط به هالة من الحواريين الزاهدين المترجمين عن مبادئه ، ولكننا لم نشاهد بينهم الأبطال الفاتحين ، والزعماء البناة القادرين .

أما محمد النبي فقد ماج عصره بالأبطال والزعماء ، بل لقد تزاحم هؤلاء الأبطال على الراية الإسلامية زحاما أعجز التاريخ عن الوفاء بأحاديثهم ، كما أعجز الدنيا عن كفاحهم .

وكل باعث فى تاريخ تلك البطولة لا بد وأن يلتمس أثر العقيدة الجديدة فى تكوينها وأثر النبي فى إلهامها .

إن المتحدث عن أبطال فجر الإسلام لا بد وأن يربط بينهم وبين القرآن والرسول فهذا هو الباب الذى ولجوا منه إلى التاريخ .

من الصديق ، ومن عمر ، ومن على وعثمان وخالد وعمرو وابن الجراح، لولا إلهام القرآن وشعاع النبي ؟ .

بل من أبناء تلك الصحراء فى رمالهم وأباعرهم ؟ وكيف وثبوا إلى تاج الدنيا وصولجان الزعامة العالمية ، من هؤلاء السابحون فى كتب التاريخ بمناكب الخالدين ، لولا القرآن ولولا النبى ؟؟

لقد كان العربى النكرة المطمور تحت أنقاض الحياة ، يأتى إلى الرسول فيستمع منه فيضىء القرآن قلبه فإذا به يثب إلى شرفات التاريخ العليا ليطل على الدنيا نورا وهدى ، فيطهرها توحيدا ، وتسطره خلودا .

إنهم أبطال من صنع الإيمان ، ومن إلهام القرآن ، ومن شعاع الرسول فقد كان كل بطل منهم كأنه آية من آيات الفرقان لا تنتهى آفاق معانيه . ولا تحد أسرار إيمانه ، ولا تحصر شواهد خلوده .

علمهم القرآن أن الحياة عقيدة ورسالة ، فانسابوا فى الأرض كالشعاع يلهمون و يرشدون و يدعون إلى ربهم بالغداة والعشى .

تلك هى رسالتهم ، أما أن تتخطفهم الدنيا تشريدا وتعذيبا ، وتطحنهم الحروب أسرى وقتلى فلا ضير فى كل هذا ، ولا خوف من كل هـذا ، ماداموا سيفوزون برضوان الله .

تستطيع الدنيا أن تنال من أجسامهم ماشاءت ، أما أرواحهم وهى سرّ وجودهم فهى شعاع من الله لا تخضع لغيره ولا ترهب سواه .

آمن كل بطل منهم أنه عليه رسالة يجب أن يؤديها للعالم هدى ونورا ، وعلى العالم أن يستمع للهدى ، وأن يدخل فى نطاق النور ، وأن يحترم مثله العليا و يستظل رايته .

واندفعوا متأثرين بتلك العقيدة فلم تستطع قوة أن تغالبهم ، بل لقد زلزلوا موازين القوة فى الدنيا ، وغيروا مجرى التاريخ فى الـكوكب الأرضى.

إنهم آمنوا فانتصروا ، و بذلك علم الإسلام الدنيا أن الإيمان أكبر قوة دافعة منتصرة ـ وأن العقيدة هى قوام الحياة للفرد والجماعة .

كانوا ملهمين من القرآ ن ، وملهمين من الرسول . ولاتزال سيرتهم إلهاما وهدى للدارسين والمتأملين .

كانوا عباقرة مؤمنين خاشعين ، وكانوا زاهدين عابدين ، وما شهد العالم من قبل فاتحاً زاهداً ولا مستأسدا عابدا .

كانوا يزلزلون الدنيا جهادا وكفاحا ، وتتزلزل قلوبهم رحمة و إشفاقا ، ومن هذا الطراز الفاتح الزاهد ، طراز العباقرة المثاليين العابدين ، أبو عبيدة ابن الجراح أمين الله ، وأمين النبي ، وأمين المؤمنين . . .

كان أبو عبيدة من هذا الطراز الزاهد الفاتح ، العابد المكافح ، بل لقد تميز ابن الجراح بين صفوف العباقرة بمميزات جعلته نسيج وحده فى نطاق الخالدين . فقد كانت عظمته عظمة صامتة تأبى أن تتحدث عن نفسها ، بل تجتهد فى إخفاء لمعانها ، لأنها عظمة الفداء والفناء فى المثل الأعلى والإعراض عن مظاهر الحياة و بريقها .

كان يعمل فى صمت و إنكار للذات ، بل كان يسمح للأضواء التى بجواره والتى خلفه بأن تسطع حتى تظلله فتكاد تغمره، كانت بطولته كأنها كلمة الحق ، تشعر بقوتها وخلودها ، فلا تحس حاجتها إلى التصفيق والضجيج .

وكان مثاليا فى عقيدته فلم ينثن للأحداث ، ولم يبخل فى الفداء ، بل قدم قربانا لعقيدته هو أثمن مايقدم المؤمنون ، وأغلى ما يستطيع المجاهدون ، بارز أباه فى بدر فى سبيل إيمانه وقتله فداء لنبيه .

وكان مثاليا فى زهده وتقشفه حتى أبكى هذا التقشف وهذا الزهد عمر بن الخطاب وهو من نعرف فى الزهد والتقشف ، فهتف : كلنا غيرتنا الدنيا إلا أبا عبيدة .

وكان مثاليا فى خلقه ، عرف بالصدق والأمانة والوفاء والترفع حتى عن الهفوة الصغيرة فهو الأمين ، وما كان للأمين أن يهفو ، وما ينبغى له .

وكان مثاليا بين أصحابه فانطوت القلوب على حبه و إجلاله ، فلم تصدر كلمة واحدة من فم بشرى صديق أو عدو فيها غمزة أو لمزة لآدابه وصفاته ، ولم يعرف عنه يوما أنه خاصم بيده أو بلسانه إنسانا فى غير جهاده ونضاله لربه ، حتى ليقول معاذ بن جبل فى رثائه له : قد فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبر صدرا ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حبا للعامة ، ولا أنصح منه .

وكان مثاليا فى صحبته لنبيه وحسبه من الفخر ، وحسبه للدلالة على تلك المثالية شهادة الرسول صلوات الله عليه له .

فقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال :

خرج علينا رسول الله ونحن نتحدث فسكتنا ، فظن أننا كنا فى شىء كرهنا أن يسمعه فسكت ساعة لايتكلم ثم قال (ما من أصحابى إلا وقد كنت قائلا فيه لابد إلا أبا عبيدة) .

وتلك الـكلمة من الرسول هى خير تقدمة لهذا البطل المثالى .

نشأته وإسلامه

قريش :

من سـلالة نبى انحدرت قريش ، وحول البيت العتيق الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل استنشقت تلك الأسرة المختارة نسائم الحياة ، معتزة بنسبها الموصول بالسماء ، فخورة بسيادتها الروحية على الجزيرة ، فهم سادة البيت المحرم ، وفرسان الأرض المقدسة .

وتناثرت بطون قريش وأخصب نسلها ، فضاق بها الوادى المجدب ، فأقبلت على التجارة تستبدل الجدب والجفاف بفيض غزير من الأموال والخيرات ، تدره قوافلها التجارية ، عبر الصحراء إلى الشام وصنعاء .

وتجلت مواهب قريش فى التجارة ، حتى أعجزت مواهب اليهود فى الجزيرة وحتى احتكرت أو كادت قوافل الصحراء كافة .

وأكسبتها التجارة ما تكسب أربابها من كياسة ولباقة وسياسة وخبرة بالنفوس ودربة على فنون الحديث ، وفوق هذا وذاك فقد أتاحت التجارة لقريش آفاقا جديدة تشاهدها فى الأمم المتحضرة ، وألوانا خلابة من العلوم والفنون ، فاتسعت تصوراتها ، وعذب حديثها ، ونمت ثقافتها نمو مواردها المالية والتجارية ، حتى غدت قريش أسرة يشيع فيها الترف ، وما يشبه الثقافة العامة وسط أمواج من الرمال والقبائل الفقيرة البدائية .

كانت قريش رغم وثنية عبادتها ومجون ترفها ، أسرة ناضجة القلب ،

ناضجة الفكر والحس مشحونة بالقوة والبطولة ، وهى قوة و بطولة ارتكزت عليها الوثبة الإسلامية ، وامتدت على التاريخ الإسلامى منذ فجره إلى يومنا .

جمعت قريش فى الجاهلية عزة المال وقوته ، إلى عزة السيادة الروحية ونبلها ، وانحدر من هاتين القوتين رذائل ونقائص .

فقد نشأ من فيض المال الذى تدره قوافلها إسراف فى الملذات ، خمر وميسر ونساء ، واستبداد وعنف وكبرياء ، ونشأ من السيادة الروحية استمساك بالأوثان مصدر تلك القوة ، وافتنان فى التمويه والخداع لدوام تلك السيادة و القوة .

وفى هذا الجو الذى تتلاقى فيه الفضيلة بالرذيلة ، وتمتزج فيه ملذات الجسد بالخرافة والأسطورة ، ولد أبو عبيدة منحدرا من بنى فهر أحد أفخاذ قريش القوية ، فهو : عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة ابن الحارث بن فهر بن النضر بن كنانة ، وقد اشتهر بكنيته ونسبته إلى جده.

وأمه : أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن فهر ، فهو قرشى أبا وأما ، فوضحت فيه خصائص قريش ومميزاتها .

وقد جاء فى طبقات ابن سعد فى وصفه : كان رجلا نحيفا معروق الوجه ، طوالا أجنأ أثرم الثنيتين خفيف اللحية وكان يصبغ بالحناء والكتم.

درج أبو عبيدة فى طفولته ، كما يدرج لداته من أبناء قريش المترفين حياة طليقة من كل قيد ، حتى إذا اكتمل شبابه أو كاد اشتغل بالتجارة صناعة قومه ، فرحل إلى اليمن وذرع بقدميه أرض قيصر تاجرا بدويا ولم يخطر بباله يوما أنه سيطأ أديمها فاتحا قويا .

ومضت الحياة بابن الجراح هادئة خاملة أو شبه خاملة . والحياة فى الصحراء لفراغها إما أن تقتل صاحبها إسرافا فى اللهو و إسرافا فى البغى ، و إما أن تدفع به إلى التأمل والأحلام .

ولم يكن بابن الجراح رغبة فى لهو قومه ، بل نأى بعواطفه عن تلك الإباحية السافرة التى انغمس فيها سادة أسرته ، ونأى بخلقه عن الصفات التى نبغ فيها فريق من قريش ، صفات البطش والتغالى فى الكبرياء ، بل لقد نأى بقلبه عن تلك الدمى التى ألهت وعبدت وتحكمت فى مصائر الجزيرة .

وقف أبو عبيدة على نهر الحياة القرشية ، لا ينغمس فى تياره ولا ينكره ولا يستطيبه ولا يبغضه بل هو أشبه بمشاهد مل تكرار الصور المعروضة ، ولا يرى بدا من الصبر والمشاهدة ، حيث لا مكان له فى سواها .

كانت الحياة فى مكة صورة مهتزة ، غير واضحة الأهداف والمعالم ، قد طمسها غبار الوثنية والتحلل ، وأشاع فيها الاهتزاز بلبلة فكرية فوارة لا تعرف الهدوء ولا تطمئن إلى استقرار .

ففريق يغرق فى وثنيته ، وفريق ينكرها ولا يجرؤ على الإنكار ، وفريق ثالث يلجأ إلى الكهوف وقمم الجبال يستلهم السماء والخيال .

حديث النبوة :

وطاف بالأرض المقدسة همس متقطع مضطرب ، همس فيه نذير ووعيد وفيه إغراء وفتنة بأن فجرا غلاب السنا والجمال يلوح على أطراف الحياة ،

وأن رسالة من السماء توشك أن تقرع سمع العالم ، يحمل لواءها نبى عربى يعيد تراث إسماعيل و إبراهيم .

وطارت الأحاديث والهمسات حتى نسب إلى الجن الهتاف بها ، وحتى أنطقوا الأصنام بلحنها وهزيجها .

واستمع أبو عبيدة الى هـذا الهمس المنتشر فى الجزيرة ، والمنتشر فى أطراف الشام، وأزكى هذا الهمس أن فجر هذا الدين المرتقب ؛ كان يخائل عقولا ترجو الهدى ، ويحوم حول قلوب تتلمس النور .

وكان هذا الفجر يلوح براقا فاتناً ، فيه سحر تهفو إليه أسماع الضعفاء والفقراء ، وفيه أمل يرجوه الحزانى والمكروبين ، وفيه متاع و إيمان تنشده أرواح قليلة فى أطراف مكة كزيد بن عمرو الذى كان يتعلق بأستار الكعبة ويهتف : إلهى لو عرفت دينا يرضيك لاتبعته ، ولكننى لا أعرف .

وتلونت الهمسات برغبات القلوب ، فهمس اليهود بنبوة جديدة تديل لهم من العرب ، وهمس الضعفاء والفقراء بوحى جديد يطلقهم من الذل والضيق ، وهمس الحكماء بإلهام يرفعهم إلى النبوة والسماء .

استمع أبو عبيدة إلى كل هـذا بنشوة وأمل ، فهو و إن لم يكن من الضعفاء والفقراء فلم يكن من القادة ولا من الأغنياء ، بل كان وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ، وهو و إن لم يكن من الحزانى والمكروبين ، فقد كان كبير القلب صافى الروح ، لا يطمئن إلى هذه الأصنام ، ولا يجد متاعا فى الخمر والميسر والنساء ، وما إلى الخمر والميسر والنساء .

وازداد فى الجزيرة هذا الهمس ، وغلب حديثه فى مكة على الأحاديث

حتى لقد تبتل رجال من قريش وتحنثوا ، وترقبوا أن يهبط الوحى عليهم .

وحوم ملك فى السماء ، ورفرف على غار حراء ، وتأذن ربك بأنّ كل شىء فى مكة سيتغير ؟ بل كل شىء على الكوكب الأرضى سيتبدل . فإن اللوحة التى رسمت يد القدر عليها العالم سيعاد تلوينها من جديد ، ليضاف إليها مزيد من الطهر والجمال ، ومزيد من الخير والكمال .

وفى غار حراء كان النور الإلهى يفيض ، وكانت صحف التاريخ القديم تطوى بأيدى الملائكة فقد حانت ساعة البعث والاصطفاء لخاتم المرسلين وأكبر الأنبياء .

يا محمد قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر .

ذلك صوت السماء قد دوى فى الأرض ، إنذاراً وبعثا ودعوة غيرت مجرى التاريخ ، وأعلت كلمة السماء .

وهمس النبى بدعوته إلى زوجه خديجة ، وربيبه على ، وصفيه الصديق ومولاه زيد بن حارثة فكانوا أول نجوم فى سماء التوحيد .

وانطلق أبو بكر يبشر بالدين الجديد ، فى صمت وخفاء ، وحذر وانتقاء للقلوب المرجوة ، فاتصل بأصدقائه : عثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبى عبيدة بن الجراح ، وهؤلاء صفوة أصدقائه ، بل صفوة الأطهار فى قريش ، وأسرعت تلك الكوكبة إلى الإسلام .

أما ابن الجراح فقد استمهل صديقه ليعرض الأمر على قلبه ، ويعرضه على عقله ، ثم لينظر فى أمره .

إسلام :

تأمل أبو عبيدة وقدر وفكر ، تفكير الرجل الذى لا يؤمن حتى يقتنع ، و إذا آمن لم يضعف ولم يهن . فرأى أن كل ما حوله باطل ، فتلك الحياة التى تحياها قريش لم تكن بالحياة الصحيحة الشريفة ، إنها لحياة فوضى وتحلل .

وعبادة قريش ، تلك الصفوف الطويلة من الأحجار التى أسموها بالأرباب ، ما قيمتها ؟ وما نفعها ؟ وهل من العقل والكرامة السجود والركوع لها ؟ أيسجد الإنسان لحجر صنعه بيده ؟ وهذا المصنوع باليد من صم الأحجار وحقيرها ، يملك من القوة ما يعبد من أجلها ؟

أخذ أبو عبيدة يتأمل و يفكر ، و يطيل التأمل والتفكير فى هذا النداء السماوى الذى يردده محمد ذلك النداء الفاتن الساحر ، الذى يتسلل إلى القلب والروح ، نداء التوحيد والتوجه بالعبادة إلى إله قوى قادر خالق السموات والأرضين ، و إلى عفاف كامل ، وخلق فاضل ، فلا عدوان ولا فسوق . ولا استباحة للعرض ولا إهدار للدم .

أدعاء محمد أهدى ، أم تلك الحياة التى تحياها قريش ، و إله محمد سبحانه أعظم أم تلك الأصنام المصقولة بالدهن والزيت ، تلك الأصنام التى يطوف بها الذباب و يعلوها التراب ، أأرباب تلك تملك القوة والخلق ، أم وسطاء عند من يملك القوة والخلق .

وهذا الهبل الملتحى كبيرهم ، القائم فى جوف الكعبة ، ما أقبحه

فى ابتسامته البغيضة ، ودمامته السمجة ، إنه لمضحك الكبر والبلاهة ، بل أولى بالضحك والسخرية هؤلاء الذين له يعبدون و يسجدون ، ثم ماذا يدعو إليه محمد ؟.

إنه ليدعو لأن تكون الحياة لحنا جميلا متسقا ، كله صفاء وطهارة ومحبة ، إنه يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، و يبشر ببعث ونشور وحياة خالدة لا تزول .

أدرك أبو عبيدة بفطرته السليمة فساد الحياة فى الجزيرة ، وأدرك بقلبه الكبير جمال الدعوة المحمدية ، فآمن إيمانا قويا قوامه هداية القلب والعقل ، آمن بعد أن ناجى نفسه طويلا ، وقلب وجوه الرأى فانبثق نور الدعوة فى وجدانه انبثاقا ظل مشعا طوال حياته لم يخب ولم يضعف ، بل ظل رائده ومرشده ، بل لعله لايزال فى سيرته مشعا يلهم الإيمان والفداء .

وآب أبو بكر إلى صديقه غداة اليوم الثانى ، لينظر أثر الدعوة فى نفسه ، فرأى فى إشراق وجهه ما أنبأه بما يبغى .

قال أبو بكر :

يا ابن الجراح ، هل اهتدى قلبك ، واهتدى عقلك ؟ .

قال أجل أبا عبد الرحمن ، هيا بنا إلى صاحبك ، فإنه ليدعو إلى الخير و إنه لرسول رب العالمين ، ما أجمل مايعد و يمنى ، وما أروع ماينذر و يخوف ،

وابتهج الرسول بإسلام ابن الجراح ، فإنه لسيد من سادات قريش ، وفتى من فتيانها الناهدين إلى السلاح ، وإنه لثامن ثمانية أسلموا ولبوا دعوته .

أسلم أبو عبيدة إسلام الرجل الذى لم يطمئن كل الاطمئنان إلى عقائده الوثنية ، لأنها لا ترضى الفطرة السليمة ، ثم اطمئن كل الاطمئنان إلى دينه الجديد . فقد امتزج بعواطفه وقلبه وحسه امتزاج اليقين والاطمئنان .

أسلم ابن الجراح قلبه وروحه للدين الجديد ، تسليما جعل محور حياته الجهاد فى سبيل عقيدته ، والتخلق بآدابها ورسالتها ، وهو تسليم طبع تاريخه وميزه ، فكان طوال حياته المسلم الأمين الكامل خلقا وعملا ووجدانا .

وصاحب الرسول منذ إسلامه فلم يفارق ركابه ، صاحبه مصاحبة الفناء التام فى سبيله ، والصفاء التام فى مودته ، والامتزاج التام بتعاليمه ، فكان أمين الرسول وصفيه ونجيّه .

اضطهاد الدعوة :

وجهر محمد بدعوته ، وكبر بتوحيده ، فثارت قريش به وثارت بمن آمن معه ، عذابا وتشريدا ومصادرة للأموال ، بل واعتداء على الأرواح وسفك للدماء .

وثبت المؤمنون الأوائل ثباتا خالدا على التاريخ ، وجنت قريش لهذا الثبات وتنزت غضبا وحقدا وعنادا ، فمزقت أرحامها ، وألغت عقولها ، وأسرفت فى انتقامها .

ومن عجب أن يكون هذا موقف قريش ، وهى أسرة الذكاء والدهاء والسياسة والعقول الراجحة ، ولكن قريشا كانت تتبع قادتها وتؤمن بهم ،

وقادة قريش لمسوا فى الدعوة الجديدة تهديدا خطيرا لمكانتهم ونفوذهم ، بل لجبروتهم وطغيانهم و إذلالهم للضعفاء والفقراء .

وقد قيل لعمرو بن العاص : ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت فى عقلك؟ فقال: إنا كنا فى قوم لهم علينا تقدم و بين ، توازن حلومهم الجبال، ما سلكوا فجا فتبعناهم إلا وجدناه سهلا ، فلما أنكروا على النبى أنكرنا معهم ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا فى أمر النبى وتدبرناه فإذا الأمر بين فوقع الإسلام فى قلبى .

كانت الدعوة الإسلامية واضحة كل الوضوح ، و إنما منع قريشا من الإيمان ، ودفعها إلى المقاومة والعدوان ، صلابة الأرستقراطية القرشية التى هددها الدين الجديد فى سيادتها وتجارتها ، وصلابة العصبية الأموية المنافسة لبنى هاشم ، فقد كانوا كما يقول زعيم الأمويين كفرسى رهان فى الجاهلية ، تنافسوا وتسابقوا حتى تساووا فضلا وفخرا ومجدا . فإذا قال الهاشميون منا نبى ، فماذا يقول الأمويون ؟

كانت صلابة العناد والتمسك بالقديم ، أخطر سلاح واجه الدعوة الإسلامية ، حتى ليقول عبد الله بن أمية ، ابن عمة النبى له : فوالله لا أومن بك يامحمد أبدا ، حتى تتخذ سلما إلى السماء ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك بصك وأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك ماظننت أنى أصدقك .

بهذا العناد و بهذه العصبية واجهت قريش النبى وأصحابه ، و بهذا العناد وبتلك العصبية اضطهدت قريش النبى وأتباعه .

كان الصراع من جانب قريش صراعا سياسيا تجاريا أرستقراطيا ، ولهذا أسرفت قريش فى البغضاء والعناد ، وأسرفت فى الفتك والاضطهاد .

ولهذا كان الإيمان بمحمد مغامرة كبرى ، بل تضحية بالحياة واضحة ، فهو إيذان بهجوم همجى ، وعدوان وحشى على الأنفس والأموال والثمرات .

كان أبو جهل إذا سمع بالرجل قدآمن وله شرف ومنعة ، أنبه وأخزاه وشهر به ، وان كان تاجرا ، قال له والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به .

كان الإسلام فى فجر الدعوة أشبه بحبل المشنقة ، لا يطيقه إلا الرجال الذين سمى فى قلوبهم الإيمان حتى عظم على الحياة والعذاب .

وقد أسلم فى تلك الفترة أصحاب القلوب القوية ، والأرواح المطمئنة الكبيرة ، أسلم رجال كان لهم أكبر الأثر فى الوثبة الإسلامية .

ولهذا كان للسابقين مكانة فى الإسلام مرموقة ، أبو بكر ، وعلى ، وعثمان ، وابن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وسعد ، والمقداد.

الهجرة الى الحبشة :

وغدت مكة غير أمينة على الدعوة ، غير أمينة على المؤمنين ، ففكر النبى فى مكان أمين يلجأ إليه أصحابه ، فيعتصمون بدينهم وأرواحهم لأن الجهاد لم يكن شرع بعد .

فكر النبى فى الشام حيث قيصر والنصرانية ثم أعرض ، فبين الروم

وقريش مصالح تجارية وصلات من المودة والتعارف ، فلا يؤمن أن ترسل قريش دعاتها ، فيذهب المهاجرون فريسة المصالح والصلات .

وفكر فى فارس ، فلم يطمئن إليها ، فهى أمة وثنية متعصبة ، تبغض الرسل والرسالات ، وتنفر من أحاديث النبوة ووحى السماء .

ثم فكر فى الحبشة فاطمأن إليها ، وعرض الأمر على أصحابه فتحمس له ابن الجراح ، وهو أحد الذين ذاقوا الهول وطعموا العذاب .

وندب النبى أتباعه للهجرة إلى الحبشة قائلا « فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق » .

فهاجر إليها فى الطليعة أو الهجرة الأولى عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم توالت الهجرة حتى بلغ عدد المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة .

وكان فى المهاجرين كثير من الصفوة الإسلامية المختارة ، عثمان ابن عفان وزوجته رقية بنت الرسـول ، وأبو عبيدة بن الجراح ، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن أبى طالب وحمل المهاجرون رسالة الإسلام إلى النجاشى ، فأصغى إليها واستمع ، وأكبر من شأنها حتى نسب إليه كثير من رجال التاريخ الاسلام الإيمان .

وسواء ثبت إسلامه ، أو لم يثبت ، فقد وسع النجاشى أتباع النبى فى أرضه ، وترك لهم حرية العبادة والدعوة .

وهاج قريش ما يلقى أتباع محمد فى الحبشة من إعزاز ، فأوفدوا إلى

النجاشي وفدا بزعامة عمرو بن العاص ، ولـكن الوفد أخفق فى رسالته ، ولم تغن براعة عمرو فى الوقيعة شيئا .

ولبث أبو عبيدة وأصحابه فى الحبشة حتى هاجر النبى إلى المدينة ، واعتز الإسلام بها ، وتكونت القوة الإسلامية الأولى ، ووجدت المدينة الإسلامية ونزلت آيات الجهاد .

فأسرع أبو عبيدة بالعودة ، فوصل إلى المدينة ، وهى على استعداد للتحرك ، بقصد الترصد لقافلة قريش الـكبرى ، التى تحولت إلى معركة بدر العظمى .

أبو عبيدة فى المدينة

لم تكن الحياة طيبة ولا هنيئة لأبى عبيدة فى الحبشة ، فقد أخرج قهرا من مجال روحه ومرتع صباه ، وفارق قهرا أخدانه ورفاقه ، فإن تحمل قلبه ، وتحملت روحه فراق عشه الروحى فى مكة ، وفراق أهله وأخدانه فى أم القرى ، فإن قلبه لأعجز من أن يتحمل أو يطيق فراق نبيه وصفيه محمد صلوات الله عليه ، وإن روحه لا تطمئن أبداً وقد ابتعد عن كفاح قريش ونضالها ، ومقاسمة النبي جهادها وهداها .

كان أبو عبيدة يحس بأنه فى موقف المستضعف ، وهو رجل جياش بالقوة فوار بالعقيدة ، لا يطيق فى إيمانه وهنا ، ولا فى جهاده ظلا من ضعف .

لقد هاجر إلى الحبشة فرارا من عقيدته من أبيه الذى أوقد له نار العذاب ، وفرارا من بنى فهر وقد أجمعوا أمرهم على كيده وتحطيمه أو يفارق صبأته ، وفرارا من غلاظ قريش ، وقد قعدوا له كل مرصد وألبوا عليه الأحابيش والموالى ، ولكن هل الفرار بالعقيدة يرضى إيمانه ، و يرضى قلبه لئن رضى بهذا رجال ورجال ، فابن الجراح ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء .

إنه ليفهم الإسلام عقيدة وجهادا ، وهو قد بايع على العقيدة والجهاد ، و إذن فليرجع إلى نبيه وليرجع إلى المؤمنين ليجاهد عن عقيدته ، أو يموت فداءها .

وصاح البشير فى أرض النجاشى ، لقد هاجر النبى إلى المدينة ، بعد أن ألقى الأوس والخزرج بأيديهم وقلوبهم إلى الإيمان .

ونادى المنادى أن حملة الرعب والعذاب ضد النبى وصحابته قد هدأ أوارها ، فقد أصبح للإسلام فى المدينة حماة ورجال .

وخفق قلب أبى عبيدة خفقتين ، خفقة المؤمن يبتهج لدينه المنتصر ، وخفقة الرجل الأبى وجد فسحة للأمل والعمل .

ولم ينتظر ابن الجراح أصحابه فى الحبشة ، بل أسرع على جناح طائر ينشد المدينة ، ويتلهف على رؤية نبيه .

واستقبله النبى بوجه طلق مبتهج ، واستقبله ابن الخطاب معانقا مهللا مكبرا ، واستقبله المؤمنون بالبشر والتهنئة .

وتأمل أبو عبيدة فإذا بالإسلام قد وثب وثبة جديدة ، فبعد أن كان المسلمون فى مكة يتخطفهم العذاب ، ويحيط بهم التشهير والرعب ، إذ بالإسلام فى المدينة ، أشبه بيقظة الصباح ، وبواكير الربيع ، فتيا مشرقا ضاحك الأمل ، ضاحك الرجاء ، سافر العبادة ، عالى الدعوة .

وقد امتزج المهاجرون بالأنصار ، امتزاجا كون منهما بيئة متساندة ، وأوجد جوا صافيا ناضحا بالمحبة والإخوة ، وأمة واحدة متضامنة متكافئة ، بعضهم مولى بعض ، لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل .

وقد دعم النبى تلك المحبة ، وهذه الأخوة ، بمؤاخاة كاملة بين كبار المهاجرين والأنصار مؤاخاة عمادها المساهمة والمقاسمة فى كل متاع الحياة ، حتى ليرث الأخ أخاه .

واستمع أبوعبيدة من النبي كيف لبي الأنصار الدعوة ، وكيف تأسس الإسلام فى المدينة ، ثم كيف جاءه أمر السماء بالهجرة ، وكيف هاجر المسلمون خفافا ، آحادا آحادا ، خيفة أن يتخطفهم القرشيون حتى لم يبق بمكة سوى النبي ، وأبي بكر وعلى ، ثم كيف أحاطت كتيبة الشر ببيته ، تبغى دمه ، وقد عصمه ربه ، وأرسل الملائكة ترعاه وتقود خطاه ، ثم كيف نثر النبي التراب فوق رؤوسهم ، وتخطى أعناقهم وامتطى وصاحبه النواضح إلى يثرب .

وكيف عجزت قريش عن مطاردتهم ، كما عجزت عن اغتيالهم ، وكان أبو عبيدة يستمع ، وصوت النبي يطوى قلبه وينشره طربا وسرورا ، ثم جاء الجانب الخطير من الحديث .

استمع أبو عبيدة إلى ما يضمر اليهود فى المدينة من خصومة لولبية ، لينة ظاهرها المحبة وباطنها الحقد والموجدة ، وإلى ما تضمر قريش ، بل الجزيرة بأسرها لهذا الدين من خصومة ، سافرة مسلحة معتدية .

لقد حشد اليهود قواهم المالية والعسكرية فى مرونة كالسم ، وحشدت الوثنية قواها فى عنف كاللهب .

وسالم النبي يهود المدينة ، فعقد معهم حلفا تحددت فيه المصالح ، وامتنع به العدوان فقد اعترف فيه بالمسلمين أمة لها دينها وتشريعها ، واليهود كذلك لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، كما نص الحلف على أن يشترك اليهود فى الدفاع عن المدينة إذا هوجمت باعتبارهم أحد دعائمها وشطر أصحابها .

ولكن اليهود وإن أجنوا السلاح وأمضوا الميثاق ، فقد أعلنوها حرب تشهير وسخرية بعقائد المسلمين ودعوتهم ، بل عمدوا إلى الإحاطة بالرسول وتوجيه الأسئلة الغامضة المبهمة اليه لإلقاء بذور الشك فى النفوس ، كما حاولوا إلقاء الشقاق و بعث الأحن بين المهاجرين والأنصار تارة ، و بين الأوس والخزرج تارة أخرى .

حتى لقد كادوا يوما أن يشعلوها نارا ورعدا ، لولا أن بادر الرسول أصحابه مهدئا ناصحا مذكرا :

« يا معشر المسلمين ، الله الله ، اتقوا الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هدا كم الله إلى الإسلام ، وقطع به منكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ، وثاب المسلمون إلى رشدهم فتبينوا همسات الشياطين » .

أما قريش فخصومتها خصومة عربية ، خصومة سلاح وكفاح سافر ، فقد أخرجوا المؤمنين من موطنهم ، وصادروا أموالهم ، وأهدروا حقوقهم ، واحتجزوا نساءهم ، فموقف القوة الإسلامية منهم هو الكفاح والجهاد ، بعد التوضيح والإرشاد .

وفى المدينة ابتدأت الدعوة تتسلح وتستعد ، فقد وصلت إلى مرحلة تحتاج فيها إلى القوة العسكرية ، للحماية والحياة .

العسكرية الإسلامية

هوجمت الدعوة الإسلامية منذ فجرها الأول هجوما عنيفا قاسيا فى مكة ، وانتهى هذا الهجوم غير المتكافئ ، بإخراج النبى وصحابته من ديارهم ، ومصادرة أموالهم ، وإهدار دمائهم .

وهوجمت الدعوة الإسلامية فى المدينة بضروب من النفاق والدسائس والتشهير والتشكيك فى العقيدة ، ثم تطاولت تلك الدسائس إلى التآمر على حياة النبى لاجتثاث الدعوة من أساسها . كانت الدعوة الإسلامية سلمية عمادها المنطق والحجة فى مكة ، وكانت الدعوة الإسلامية فى المدينة سلمية عمادها المنطق والحجة والجدال بالتى هى أحسن .

ولكن قريشا أبت السلام ونفرت من المنطق والبرهان ، وأهدرت الدم واستباحت العدوان ، وأبت اليهود فى المدينة المنطق والحجة ، وسخرت من الدعوة وشوّهتها وصورتها تصويرا خاطئا سفيها وأعانت على حربها ، وتآمرت مع خصومها ورصدت الغيلة فى طريق النبى ، تبغى أن تطفئ النور وتحطم المصباح .

أعلنتها قريش حربا عدوانية سافرة ، وأعلنتها اليهود حربا عدوانية مبهمة مقنعة تارة ، وسافرة واضحة تارة أخرى ، فلم يكن بدّ من حماية الدعوة ، ودفع القوة بالقوة .

أدرك النبى صلوات الله عليه هذا فعمد إلى تنمية الروح العسكرية بين صفوف أتباعه ، وتولى القرآن بنغمه الإلهى حشد تلك القوة وتهذيبها وإعدادها .

وللقرآن جرس فى الدعوة إلى الجهاد ، ما طرق قلبا مؤمنا إلا ألهبه وأشعله ، وحبب إليه الجهاد والاستشهاد ، لإعلاء كلمة الرحمن .

جعل القرآن الجهاد لحماية العقيدة ، ولدفع العدوان ، وهداية الإنسانية ثم الفوز برضوان الله وجناته .

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ » .

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لاَيَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ » .

إذن فقد أذن للذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم لأنهم قالوا : ربنا الله بالقتال دفاعا عن نفسهم وحماية لعقائدهم .

والمؤمن مجاهد لا تلهيه أمواله ولا أولاده ولا إخوته ولا تجارته ولا متاعه عن الجهاد فى سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ومن ونى أو تقاعد ، فليأذن بحرب من الله ، وليأذن بضعف وهوان ، وليأذن بمقت وغضب من فاطر السموات والأرضين .

دوى صوت القرآن بالجهاد ، والحشد العام ، فرفعت الراية الإسلامية وفتحت أبواب السماء ، وتسابق الشهداء إلى الميادين ، فى يمناهم كتاب ولواء وحسام .

أبو عبيدة فى بدر

أدرك المهاجرون فى المدينة أن معنى القتال والجهاد ، هو أن يرفعوا سيوفهم أول مايرفعونها ضد قلوبهم وعواطفهم ، ضد آبائهم و إخوانهم وأولادهم وأقاربهم وأولى أرحامهم من مشركى مكة .

وهو امتحان رهيب ، ولـكن معانى الإسلام قد استولت على قلوبهم ، فأصبحوا يعيشون داخل تلك المعـانى ، و يعمرون بيوتها ، و يلمسون فى أهدافها دفء الحياة ونورها ، و يلمسون فيها مقدسات أعلى من معانى الأبوة والأخوة والحياة .

امتحنت العقيدة الجديدة امتحانها الرهيب فى بدر ، فخرجت منتصرة ظافرة ، كانت معركة بدر معركة مبادىء فرقت بين أسرة واحدة ، ومزقت أرحاما متقاربة ، والأسرة إذا تمزقت ، والمبادىء إذا تخاصمت ، كانت خصومتها كتصادم الحديد عنيفة قاسية .

وكانت بدر فوق امتحانها للعواطف والقلوب ، وامتحانها للعقائد والمبادىء ، معركة الحياة والموت للدين الجديد ، إنها أول صدام له فإما أن تتحطم مبادؤه ، وتنطفىء أنواره و إما أن يخفق لواؤه خالدا أبدا .

تلاقى الفريقان فى بدر ، فى قوة غير متكافئة ، فقد بلغت عدة الجيش الإسلامى ، ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، لايملـكون إلا بعيرا وفرسين .

بينما بلغت جيوش قريش ألفى مقاتل ، بينهم ٦٠٠ دارع فى سابغ

الحديد و١٠٠ فرس مدرعة و٧٠٠ بعير مضمرة للسباق والوثوب .

ولـكن القلة الإسـلامية ، كانت قلة متحدة الروح ، متحدة الهدف ، متحدة القيادة ، يسوقها جرس القرآن ، إلى الاستبسال والاستشهاد والفداء ، وينفث فيها النبي صلوات الله عليه من روحه نورا وإيمانا ، ويقينا ثابتا غلابا .

بعثت قريش عمرو بن وهب الجمحى ، ليحرز عدد المسلمين ، فجال بفرسه جولة ، ثم عاد ، فقال : « هم ثلاثمائة يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولقد رأيت الولايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب ، تحمل الموت الناقع ، ليس لهم منعة إلا سيوفهم ، والله لايقتل منهم رجل ، إلا بقتل رجلا منكم ، فإذا أصابوا أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك » .

وسرت همسات الوهن فى صفوف قريش ، حتى هتف أحد جبابرتها « عتبة بن ربيعة » (لئن أصبتموهم لايزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ، ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته) تلك هى الروح التى تفشت فى قريش .

أما الجيش الإسلامى ، فقد زودته الدعوة الجديدة ، بقوة فوارة جياشة ، ونفثت فيه فدائية قاهرة غلابة .

نظر عوف بن الحارث إلى الرسول ، فقال يارسول الله ، مايضحك العبد من ربه ، قال غمسه يده فى العدو حاسرا ، فنزع الدرع التى كانت عليه فقذفها ، ثم حمل يبرق سيفه ، وترعد وثباته ، فقاتل حتى قتل .

وهتف النبي ، والذى نفس محمد بيده ، مايقاتلهم اليوم رجل ، مقبل غير مدبر ، فيقتل إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمير بن الحمام ، و بيده تمرات يأكلهن . بخ . بخ . أليس بينى و بين أن أدخل الجنة إلا أن أقتل ، ياويح نفسى على الجنة ، ثم قذف التمرات ، واندفع يهد بسيفه ، ويمزق الصفوف بضرباته ، و ينال من الأسنة ، حتى نالته الأسنة .

أما قريش ، فقد كانت تقاتل ، وهى لاتعلم لم تقاتل ؟ قاتل بعضهم حقدا وحسدا ، وقاتل بعضهم عصبية وجهلا ، وقاتلت كثرتهم طواعية لأوامر الزعماء والقادة .

وقاتل المؤمنون على أسوار الجنة ، وهتاف السماء ، كانوا يجاهدون ، ونغم القرآن يتواثب فى قلوبهم نورا ونارا ، وصوت النبي يلهبهم ، وريح الجنة يخدرهم ، وأطياف الملائكة تؤيدهم .

وعلم النبي قيمة الصدام فى بدر ، فأيقظ الحماس فى صدور المؤمنين ، بكلمات حاسمه مبشرة جلجل بها صوته الحبيب :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت ، بخيلائها وفخرها ، تحادّك ، وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى » .

« هذه مكة ، قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها ، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم ، لا تعبد » .

إنه ليوم الفصل ، وميقات الحياة ، فأضواء السيوف فى بدر ، هى التى

أنارت للاسلام طريقه إلى القادسية واليرموك والأندلس ، والهند ، وطارت به فوق الأنهار والمحيطات .

إن صوت السيوف فى بدر ، صداه اليوم ، الله أكبر ، الله أكبر ، يهتف بها المؤذنون على منابرهم فى أرجاء الأرض ، يستقبلون بها ، يقظة الصباح ويضيئون بها ، بواكير الليل .

لقد خفق قلب الدنيا فى بدر ، فإما توحيد إسلامى ، يطلق النور فى رحابها ، وإما وداع للتوحيد ، ودولة للظلام .

كان الله أقرب مايكون إلى المجاهدين فى بدر ، وكانت الملائكة تطوف بصفوف المؤمنين ، وخفق النبى خفقة ، ثم صاح ، أبشر أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده وعلى ثناياه النقع ، وساهمت سيوف الملائكة فى النصر .

إيه أنشودة بدر ، أى أنشودة أنت خلودا وسنا ، وفى موسيقاك لحن للملائكة ، وفى أنغامك روح من القرآن ، وضياء من الرحمن ، وحياة الايمان .

إيه أنشودة بدر ، هل فى أنغامك لحن ، أروع من لحن ، ابن الجراح ، وهو اللحن الخالد فى جلاله أبد التاريخ .

كان ابن الجراح هو صورة بدر ، وعنوان رسالتها ، صورة العقيدة فى عبيرها وشذاها ونورها وضياها ، صورة المسلم فى أروع أردية الفداء ، صورة المؤمن يقاتل وعينه إلى السماء فينال بسيفه خصم الرحمن ، ولو كان من الأبناء أو الآباء .

تلك صورة ابن الجراح ، وهو يغمس يده فى العدو حاسرا ، فإذا بأبيه عبد الله بن الجراح وهو سيد من سادات قريش آلمه إسلام ابنه الوحيد فحرص على قتاله فى أول لقاء بين الاسلام والوثنية .

تصدى عبد الله لابنه ، وأعرض أبو عبيدة وقد خفق قلبه ، واندفع يجاهد ، فعارضه أبوه ، فأعرض عنه ، واندفع مبتعدا ينشد طرادا مع غيره، وتصدى ثالثة ، فأعرض ونأى إلى كوكبة يجالدها ، ثم تصدى له للمرة الرابعة وأخذ عليه سبل الفضاء ، وتلاقت القلوب والعيون والذكريات ، جياشة فوارة .

والتهبت عواطف ابن الجراح ، وهى عواطف نبيلة رقيقة ، زادها الاسلام نبلا ورقة وحساسية ، وزادها الاسلام إجلالا للأبوة وتقديسا لها ، وهو يرى أباه هدف السنان والحسام .

والأب حانق غاضب ، يرى لنفسه حقوقا مقدسة فى ابنه ، حقوقا تحتم التأديب والإرغام لمن تمرد على أبوته ودينه وقومه .

اندفع الأب الغاضب ، يرسل سيفه فى إصرار وعنف ، وثبت أبو عبيدة وثارت عقيدته فرأى أباه يعرقل جهاده لربه بهذا التصدى والتحدى أينما توجه ، أو أرسل سيفه .

ورأى فى هذا التعرض ، تعرضا للاسلام ، وصدا عن سبيل الله ، ورأى فى صبره على أبيه تهاونا فى دينه ، وتهاونا نحو ربه ، وتهاونا نحو نبيه .

وما كان أبو عبيدة ليرضى لنفسه التهاون فى دينه وربه ونبيه ، فقد باع لربه روحه وماله وعواطفه بأن له الجنة .

أصمت أَبو عبيدة عواطف البنوة ، فانبثق فى قلبه فيض من الإيمان والاطمئنان ، محا آيات الذكرى والحنان ، ذكرى تلك الأيام الجميلة الحلوة ، العزيزة الوضاءة حينما كان أبوه يناغيه ويلاعبه ، ويشد أزره ، ويسدد خطاه .

واعتزاز العربى بأبيه معروف ، واعتزاز أبى عبيدة بأسرته مشهود ، وخلق أَبى عبيدة ورقته ووداعته من عناوين التاريخ .

ولكنه رأى فى أبيه سدا بينه وبين الجهاد ، وحائلا بينه وبين إعزاز دين الرحمن فهل يتقهقر وينأى عن المعركة.

لا ، ولا ، قوية حاسمة ، فما كان ابن الجراح ، ليواد قوما يكفرون بالتوحيد ، ولا يصدقون بالنبى ، ويصدون عن سبيل الله .

التقى السيفان . . .

التقى الأب والابن . .

خصمان اختصما فى ربهما . هذا يدعو إلى الرحمن ، وهذا يدعو إلى الأوثان . التقى السيفان ، ما أغلاهما ، وما أَرهبهما .

وقد امتلأ قلب الوالد حقدا على ابنه المتمرد ، وامتلأ قلب الابن بنور عقيدته ، فاندفعا فى حماس وعنف ومرارة .

أمات أَبو عبيدة قلبه ليرضى ربه ، بل أحيا قلبه بفيض من الحرارة وفيض من النشوة ، أعطر وأخلد من فيض الحنان والأبوة .

ولمع السيف فى يمين أبى عبيدة ، ثم لمع ثم فكر وقدر ، وقدر وفكر وأرسل السيف يمزق أديما عزيزا ، كريما غاليا ، يمزق وترا ، أحس أبو عبيدة فى قلبه صداه وأنينه .

مزق أبو عبيدة أوتار قلبه ، ليرضى إيمانه وربه ، فضرب أروع أمثلة الفداء وقدم أغلى ضحايا الإيمان .

هذا هو ابن الجراح عنوان بدر ، وهذا هو الدين الجديد ، يهب المؤمن فيه ماله وأهله فى سبيل ربه .

وهذا الإيمان ، هو الذى انتصر به المسلمون فى بدر ، وفى مابعد بدر حتى رفرفت ألويتهم أينما أضاءت الشمس .

هذا هو الإيمان ، الذى فتح الدنيا للمسلمين ، وفتح الجنة للمؤمنين ، هذا هو الإيمـان المنزه عن الأغراض والأهواء ، ومتاع الحياة ، لأنه ارتفع عن الدنيا ، إلى عبير الخلد الدائم .

وتهامس قوم بقسوته ، وصفق قوم لعقيدته وأبوعبيدة ، وإن تمزق قلبه لموت والده ، فقد اطمأنت نفسه ، ورضيت بتلك التضحية الغالية .

تلك التضحية المرتفعة فى جلال وطهر ، لإرضاء فاطر السموات والأرضين ، تضحية لم يعرفها الـكوكب الأرضى ، منذ أوقد الله الشمس إلا لهذا الدين الجديد .

وجاء وحى السماء ، يبشر أبا عبيدة ، برضوان من الله وتأييده وحياة فى الخلد هنيئة لا تبلى .

« لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ

وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » .

واستمع أبو عبيدة إلى آى القرآن ، فرأى فى كل حرف من حروفه أبوة ، وفى كل كلمة من كلماته عزاء أى عزاء ، ونعيما وخلودا .

يقول جوته ، فيلسوف الألمان الأكبر ، « لاعظيم فى الدنيا إلا ما يدوم » وعظمة بدر ، هى عظمة الإسلام ، الذى ساد ودام ، وسيبقى يؤدى رسالته التى انتصرت يوم بدر ، حتى على الحنان المنبثق من قلوب الأبناء على الآباء .

أبو عبيدة فى أحد

كان نصر المسلمين فى بدر ، أشبه بشعاعة النور ، انتشارا ولمعانا فى الجزيرة بأسرها .

وتهامست القبائل بأن الدعوة المحمدية نالت من قريش ، وأذلت من كبريائها ، وقريش سادة الجزيرة ، وحماة الوثنية فى ربوعها ، فهزيمتها هزيمة للقوة العربية ، وهزيمة للوثنية ، أمام هذا الدين اللامع الواثب .

وابتدأت الجزيرة تهادن الدين الجديد وتسالمه ، وتتطلع إليه فى إكبار وإجلال ، بينما أخذ النبى فى توطيد صلاته بالقبائل المجاورة للمدينة ، وفى تصفية حسابه مع جيرته من اليهود .

وانتعشت الحياة الإسلامية ، وأحس المهاجرون بأن لهم قوة وسيوفا تديل لهم يوم الصراع ممن لمسوهم بالأذى والسوء ، وأحس الأنصار ببأسهم ووثبات فتيانهم ، وقد علوا بسيوفهم هامات الجبابرة من سادة مكة ، وعلم الفريقان بأن سر نصرهم على عدو أشد قوة ، وأعظم عدة ، هو هذا الدين الجديد ، هذه الشعلة العلوية التى كمنت فى صدورهم نورا ، وانطلقت يوم الروع لهبا ونارا .

أما قريش فقد ذاقت مرارة الهزيمة لأول مرة فى تاريخها ، منذ تغلبها على قضاعة ، وبسطها نفوذها على مكة ، إنها لم تنكب بمثل نكبة بدر ، فقد

قتل سبعون من صناديدها ، وأسر مثلهم ، وهى أرقام لم تعرف ، فى تاريخ المعارك الحربية العربية قبل اليوم .

وأصاب الأسى قلب مكة وطاف الوجوم والحزن بربوعها ، وناحت النائحات ، ونظم الشعراء المراثى وقامت النادبات يندبن القتلى ، ويشعلن لهب النار والانتقام .

ثم صاح صائح لا تدخلوا السرور على قلب محمد وأتباعه بتلك الصيحات الحزينة الملتاعة ، فبلعت الجفون دموعها ، وكتمت القلوب آهاتها ، وتصبر نساء مكة قبل رجالها ، وبدءوا يفتلون حبال الانتقام ، ويشحذون سهام الثأر .

ونذر أبو سفيان ألا يمس طيبا ، ولا نساء ، حتى يثأر وينال من الدماء ما يروى بها ظمأه .

علمت قريش أنها مهددة بالفقر ، بعد أن قطع المسلمون طريقها التجارية إلى الشام ، ومهددة فى عقيدتها ، بعد أن انتصر المسلمون هذا النصر المؤزر المدوى فى الجزيرة .

فاستعدت للانتقام سنة كاملة ، تعبىء قواها، وتلم شعسها، وتجند أتباعها وتحشد حلفاءها حتى استكملت عدتها ، فخرجت ملتهبة ، فوارة بالبأس والغضب ، فى عدة كاملة محكمة ، وجيش مدرب قوامه ثلاثة آلاف بينهم الكثير من الفرسان يؤيدهم ٧٠٠ دارع ، وخرجت النساء بالدفوف والمزامير لإشعال الحماس ، وإلهاب القلوب .

وحملت العيون الأنباء إلى يثرب ، ولم تكن غافلة ، واستشار النبى

أصحابه ، وكان من رأيه الإقامة والتحصن داخل أسوار المدينة ، قائلا « دعوهم حيث نزلوا ، فأن أقاموا أقاموا بشر مكان وإن دخلوا علينا قاتلناهم »

وأشار بهذا الرأى أيضا عبد الله بن أبى ، وكان هذا هو الرأى الصائب الحكيم ولكن الكثرة المنتشية بنصر بدر ، وفى طليعتهم شباب المدينة ، تنادوا بالخروج ، والحوا على الرسول ان يخرج بهم إلى القتال ، فلا يقال ، إن المسلمين ضعفوا او جنبوا .

واستجاب الرسول لرأى الكثرة عملا بمبادىء الإسلام فى الشورى ، فخرج بقواته التى بلغت الف مقاتل ، قاصدا جبل احد ، ليلتقى بقريش خارج المدينة :

وفى الطريق تخاذل عبد الله بن أبى ، رأس النفاق بالمدينة ، مدعيا بأن النبى خالف رأيه القائل بضرورة التحصن خلف الأسوار ، والبقاء بالمدينة ، مطيعا لفتيان المسلمين ، فعاد ومعه ثلاثمائة من أتباعه فواصل النبى السير بمن بقى معه ، حتى بلغوا أحد فنزلوا بأطرافه .

وعبأ النبى جيشه ، فأقام الرماة وعددهم ٥٠ فى الجناح الأيسر ، على أكمة ، وأمرهم بأن لا يغادروا مكانهم ، ولو شاهدوا الطير تتخطفهم .

وأقبلت قريش برجالها ونسائها ، ودفوفها وخيولها ، وقد قدمت الرماة فجعلتهم فى الصف الأول ، وجعلت الفرسان على الجناحين بقيادة خالد ابن الوليد .

واندلع أوار المعركة ، حاميا داميا ، وصدق المسلمون الحملة وكبروا

واندفعوا فى وثبة عنيفة صلبة فوارة ، فأوقعوا الاضطراب والفزع فى صفوف قريش ، بل لقد انهارت قريش انهيارا تاما فركنت إلى الفرار .

وظن رماة المسلمين أن المعركة انتهت ، وأن النصر كتب للمؤمنين ، فغادروا أماكنهم مخالفين أمر نبيهم وانحدروا إلى الغنائم .

ونظر خالد عبقرى الحرب اللماح ، وكانت فرسانه هى القوة الوحيدة التى بقيت متماسكة فى صفوف قريش ، فرأى ظهر المسلمين قد انكشف ، بمغادرة الرماة للأكمة ، التى كانوا يحمون من فوقها ظهور المسلمين .

فكرّ بفرسانه ، وهاجم المسلمين من خلف ، فكانت حركة حاسمة ، بدلت الموقف فجأة ، وانتزع بها النصر من مخالب الهزيمة ، وفوجىء المسلمون مفاجأة أذهلتهم ومزقت صفوفهم ، وأشاعت الفوضى والرعب فى قلوبهم .

ونادى منادى قريش ، بأن محمدا قد قتل، فتزلزل المسلمون ، وتمزقوا ، وولى فريق منهم وجه صوب المدينة .

وثبتت الصفوة المختارة ، وتعاهدت على الموت ، وتنادت بالجنة ، وأحاط بالنبى خلاصة تلك الصفوة من الأبطال والكماة .

وبرزت البطولة الإسلامية قوية صلبة وقت الشدة والبأس ، ورأى مصعب بن عمير أخاه يهاجم النبى فمزق وجهه بالسيف ، وتجمعت سهام قريش واستهدفت النبى ، فوقاه طلحة بنفسه حتى انتظمته السهام ، وقاتل النبى صلوات الله عليه لأول مرة قتالا شديدا ، حتى ليقول على البطل « كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق ، لذنا برسول الله فما يكون أحد

أقرب إلى العدو منه » ورمى سعد بن أبى وقاص ألف سهم دون النبى .

وخلص فريق من المشركين إلى الرسول ، فشج رأسه الشريف ، وتكسرت ثناياه ، ودخلت حلقات المغفر فى وجنتيه .

وثبت أبو عبيدة ، وكان أحد أبطال الملحمة التى تركز محورها حول النبى ، فقاتل عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ، وعرض نحره للسيوف والرماح فداء لنبيه .

قال أبو بكر الصديق .

« لما كان يوم أحد ، ورمى رسول الله فى وجهه حتى دخلت فى وجنتيه حلقتان من المغفر فأقبلت أسعى إلى الرسول ، وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيرانا ، فقلت اللهم اجعله طاعة ، حتى توافينا إلى رسول الله ، فإذا أبو عبيدة ، قد بدرنى فقال ، أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتنى فأنزعه ، من وجنة رسول الله » .

قال أبو بكر فتركته فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتى المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية أبى عبيدة ، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فأخرجها وسقطت ثنيته فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم .

وهذا الموقف من الدلائل النفسية القوية على أبى عبيدة وصحبته للرسول صحبة فداء ومحبة ، لم يلهه الخطر ، ولم تثنه تلك القوة المواجهة له تنذر بالموت ولم ترهبه ظلال السيوف عن المبادرة إلى نزع حلقات المغفر من وجنتى الرسول ، ولو تحطمت ثناياه .

بل بلغ من حرص أبى عبيدة على هذا الشرف ، أن أقسم على أبى بكر

أن يترك له الفوز بتلك المساعدة المبذولة للنبي فى موقف الخطر والشدة .

وابو بكر حريص أكبر الحرص على هذا الشرف ، وما كان ليترك مكانه ، إلا لصديقه الكبير ابن الجراح لأنه يعلم مبلغ حبه للرسول ، و يعلم قلبه الذى يتفطر لما يصيب الرسول .

وكان ثمن هذا الثبات الرائع ، وتلك البطولة ، التى أحاط بها صفوة المسلمين النبي ، ان تجنب المسلمون النكبة والهزيمة التامة .

وكان سر نكبة القوة الإسلامية ان الرماة لم يستمعوا لأمر قائدهم الأعلى ، بل تصرفوا حسب ما خيل إليهم .

وهو درس علم المسلمين ، وجوب الطاعة التامة للقيادة ، وهو الدرس الذى لا يزال عنوان الفنون الحربية إلى اليوم .

أبو عبيدة فى سريتيه

لم تحل هزيمة المسلمين فى أحد، دون نمو القوة الإسلامية، بل امتدت تلك القوة وعظم بأسها حتى أجلت اليهود عن الجزيرة ، وأرسل الرسول سراياه و بعوثه تجوس خلال الديار ، حتى بلغت مشارف الشام ، وأطراف اليمن .

وقد تولى أبو عبيدة قيادة سريتين من تلك السرايا، فكانت السرية الأولى إلى غطفان أرسلت للانتقام من بنى ثعلبة بعد أن فتكوا بالمسلمين الذين قادهم محمد بن مسلمة للتجسس على غطفان ومعرفة أحوالهم .

ولما وصل خبر هـذه المذبحة إلى النبى جهز أبا عبيدة على رأس فريق من المهاجرين والأنصار وأمره بأن يقصد المكان الذى قتل فيه رجال السرية الأولى ، وسار أبو عبيدة مجدا بأصحابه، ولكنه لم يجد أحدا من بنى ثعلبة ، الذين فروا وتركوا متاعهم ومواشيهم ، فأخذها المسلمون واستاقوها إلى المدينة .

والسرية الثانية ، وتعرف بغزوة الساحل ، أرسلها الرسول لتأديب جهينة و إخضاعها ، واصطحب أبو عبيدة معه ثلاثمائة من وجوه المهاجرين والأنصار .

وكانت مهمة شاقة ، بعيدة الهدف ، سلك المسلمون فيها بقاعا قاحلة ،

لا ثمر بها ولا ماء ، فتعرضوا للظمأ والجوع ، ولولا حكمة أبى عبيدة لهلك الجيش .

وقد نفدت أقوات الجيش ، ولم يبق معهم إلا التمر ، فجمعه أبو عبيدة وأخذ يفرق على جنوده كل يوم قبضة قبضة ، ثم تمرة تمرة ، حتى نفد التمر.

فلما أدركوا ساحل البحر وجدوا دابة ضخمة هائلة ــ مثل الكثيب ــ كما يقول رواة السير الذين أسموها العنبر ، وهى فيما نعتقد (الحوت) فقال الجيش : ميتة لا نأكلها !

فقال أبوعبيدة: جيش رسول الله ، وفى سبيل الله ، ونحن مضطرون ، كلوا على بركة الله ، فأكل الجيش .

وأسرف رواة السير فى ضخامة الدابة ، حتى قالوا ، إن الجيش أكل منها عشرين ليلة ، وقالوا إن ثلاثة عشر من المهاجرين وسعتهم عين الدابة فى تجويفها ؟

وإنما الثابت ، أن الجيش عند أوبته ، كان فريق منه يحمل فى قلبه أشياء من فتوى أبى عبيدة فأخبروا النبى خبر الدابة ، وكيف أمرهم أبو عبيدة بالأكل منها .

فقال النبى هو رزق رزقتموه ، أمعكم منه شىء وأنا آكله ، وأقر أبا عبيدة على فتواه ، وكانت تلك الحادثة مبدأ التشريع الخاص بحل أكل صيد البحر حيًّا وميتاً .

وكان أبو عبيدة مجتهدا بعيد النظر حينما قال : جيش رسول الله ، وفى سبيل الله ، ونحن مضطرون إلى الطعام ، فكل شىء حل .

وقد علم الرسول أصحابه الذين يثق بهم الاجتهاد ودعاهم إليه ، وندبهم إلى استعمال عقولهم والتفكر فى أوجه الصواب .

سأل الرسول معاذا ، حينما أرسله إلى اليمن ، كيف تحكم فيما يعرض عليك ؟ قال معاذ : أنظر ما جاء فى كتاب الله ، فإن لم أجد ففى سنة رسول الله ، فقال له : فإن لم تجد ، قال : أجتهد ، فوافقه الرسول .

أبو عبيدة وعمرو بن العاص

ولأبى عبيدة موقف مع عمرو بن العاص ، يعتبر من الملامح القوية المميزة ، وهى ملامح واضحة الأثر فى سيرته وحياته .

وهو موقف الرجل الذى لايبغى من جهاده ، جاها ولا سؤدداً ، وإنما يهدف نحو الغاية العليا ، فى صمت وإنكار للذات ، وترفع عن شهوات الرياسة والسيادة .

فقد بعث رسول الله عمرو بن العاص إلى أرض « بلى وعذره » فى مشارف الشام ، وكانت أم عمرو من قبيلة «بلى» فتألفهم الرسول بذلك فى السرية التى تعرف « بذات السلاسل » .

ولما أوغل عمرو فى السير خشى العاقبة ، فهو مقدم على أرض خطرة ، تضمر الخصومة والبغضاء ، مع كثرة فى العدد وبأس فى اللقاء ، فاستنجد بالرسول لقلة من معه ، فأرسل إليه النبى ، سراة المهاجرين وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، وقال لأبى عبيدة حين وجهه « لا تختلفا » أى لا تختلف مع عمرو ، لأن النبى صلوات الله عليه ، كان يعرف طبيعة عمرو ، ودوافع الفخر فى نفسه .

فلما قدمت النجدة على عمرو ، قال للمهاجرين أنا أميركم ، وأنا أرسلت إلى الرسول أستمده بكم ، فقال المهاجرون وفى طليعتهم أبو بكر وعمر ، بل أنت أمير أصحابك ، وأبو عبيدة أميرنا .

فقال عمرو : إنما أنتم مدد أمددت بكم فأنا القائد ، فلما رأى أبو عبيدة بوادر الخلاف قال فى سماحة ورضى : تعلم يا عمرو ، أن آخر ما عهد إلى الرسول أنه قال « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا » وإنك إن عصيتنى ، أطعتك ، قال عمرو فأنا أمير عليك ، قال أبو عبيدة فدونك ، فصلى عمرو بالناس .

وأبو عبيدة يعرف أنه آثر عند الرسول من عمرو ، ويعرف أن المهاجرين قد أبوا كل الإباء أن يتولى عمرو أمرهم دونه ، وللرياسة بريق وإغراء ، ولكن ابن الجراح يعرف أن مكانته فى أعماله لا فى الرداء الذى يرتديه وقت العمل ، ولا فى لون هذا الرداء .

كان شعار أبى عبيدة البذل فى الخفاء ، والجهاد لله خالصاً ، فى عزوف عن القيادة والرياسة لتكون النية أكمل ، والثواب أشمل .

وأبو عبيدة ، هو الذى غضب من عمر بن الخطاب ، حينما قال له يوم السقيفة « امدد يدك أبايعك ، فأنت على لسان الرسول أمين هذه الأمة » غضب أبو عبيدة فصاح بعمر ما رأيت لك فهة قبلها قط ـ أى خطأ واضحا ـ أتبايعنى وفيكم ثانى اثنين الصديق ؟

كان هذا هو شعار أبى عبيدة ، ولهذا سالم عمرا ولم يخالفه ، وآثر الوحدة على الشقاق وترك لعمرو ما رغب فيه ، وهو التواق إلى الإمارة والصدارة ، المحب للأعمال المدوية ، التى ترفعه فى الأعين والقلوب .

وقد روى عن عمرو ، أن نفسه حدثته إذ ولاه الرسول على المهاجرين وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، إنما ذلك لمكانة خاصة له ، قال عمرو

فأتيت الرسول عقب عودتى فقعدت بين يديه فقلت : يا رسول الله من أحب الناس إليك ؟ قال عائشة ، قلت من الرجال ؟ قال أبوها ، قلت ثم من؟ قال عمر بن الخطاب ، قلت : ثم من ؟ فعد رجالا منهم أبو عبيدة . ولم يسمع عمرو من الرسول ما أمل .

ولعمرو مع ابن الجراح ، حادثة أخرى ، شبيهة بتلك ، عند ما ندب أبو بكر العرب لفتح الشام ، فجعل عمرو أميرا على أحد الجيوش الغازية ، ولكن عمرا تطلع إلى القيادة العامة ، فقال لأبى بكر « ألست أنا الوالى على الناس؟ » فأجابه الخليفة : أنت الوالى على من أبعثه معك من هاهنا » فقال بل على من أقدم عليه من المسلمين، قال لا ، ولكنك أحد الأمراء ، فإن جمعتكم حرب فأبو عبيدة أميركم .

وغضب عمرو ولكنه لم ييأس ، وهو المتطلع التواق إلى الزعامة ، فذهب إلى عمر بن الخطاب ، فقال : يا أبا حفص قد علمت نصرتى فى الحرب ومناقبى فى العدو وقد رأيت منزلتى من رسول الله ، وقد أرى أبا بكر لا يعصيك ، فأشر عليه يرحمك الله أن يولينى أمر هذه الجنود بالشام ، فإنى أرجو أن يفتح الله على يدى ، وأن يريكم الله ما تسرون به .

قال عمر: ما كنت لأكذبك ، ما كنت لأكلمه فى ذلك، وما يوافقنى أن يبعثك على أبى عبيدة ، وأبو عبيدة أفضل عندنا منزلة منك .

وغضب عمرو مرة ثانية ، وقال فى مرارة وألم « إنه لا ينقص أبا عبيدة

شيئا من فضله أن ألىَ عليه » فابتسم عمر الخبير بالنفوس ، وأبى أن يقره على رأيه .

ولما قدم عمرو على أبى عبيدة ، قال له أبو عبيدة : « مرحبا بك يا أبا عبد الله ربّ يوم قد شهدته مباركا للمسلمين فيه برأيك ومحضرك ، و إنما أنا رجل منكم ، لست و إن كنت الوالى عليكم بقاطع أمرا دونكم ، فأحضرنى برأيك فى كل يوم بما ترى ، فإنه ليس عندى عنك غنى » .

نائب الرسول فى نجران

لنجران ووفدها فى تاريخ الدعوة الإسلامية آثار واضحة ، فوفد نجران المسيحى هو الذى أثار الحوار الكبير بين الإسلامية والمسيحية ، حتى بلغت عدد الآيات التى نزلت فى هذا الحوار ، بضعا وثمانين آية ، وكانت الأعين المسيحية واليهودية والوثنية ترقب نتيجة هذا الحوار وتتركز حوله .

وقد قدم وفد نجران إلى المدينة بعد عامين من الهجرة ، وكانوا ستين رجلا من أرباب الألسن والعقول والشرف ، يقودهم زعماء نجران الثلاثة : عبد المسيح ، وابن الأيهم ، والأسقف أبو حارثة بن علقمة ، فدخلوا على الرسول فى المسجد إثر صلاة العصر وعليهم جبب وأردية حبرة ، متختمين بخواتم الذهب ، وتلوح عليهم نضرة النعيم والرفاهية .

وقدموا بين أيديهم إلى الرسول هداياهم ، وهى بسط فيها تماثيل ومسوح ، فقال لهم رسول الله : أما البسط فلا حاجة لى فيها ، وأما المسوح فآخذ بها .

ثم عرض عليهم الرسول الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، ودار حوار طويل عريض حول العقيدة الإسلامية التى تنادى بالتوحيد ، وأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، حى قيوم ، لا شريك له ولا أبناء .

وعقيدة المسيحيين فى عيسى صلوات الله عليه ، وهل هو إله ؟ أو ابن الله ؟ .

ولم يسفر الجدل والحوار عن إقناع ، فدعاهم الرسول إلى المباهلة ، لتحل لعنة الله على الكاذبين « تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » .

فلما خلوا إلى أنفسهم ، خشوا الملاعنة وعواقبها ، فقالوا يا أبا القاسم « قد رأينا ألا نباهلك ، وأن نتركك ، ونبقى على ديننا ، وأن نصالحك على ألفى حلة وألفى أوقية فضة (٨٠٠٠٠ درهم) فى كل سنة نصفها فى صفر ونصفها فى رجب .

ثم قالوا : وابعث معنا رجلا من أصحابك ، قويا أمينا ، يأخذ لك الحق ، ويعطيناه ، ويحكم بيننا فى أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا .

فقال لهم الرسول صلوات الله عليه « لأبعثن معكم القوى الأمين » فتطاول كبار الصحابة لهذا الشرف ، حتى ليقول أبو بكر الصديق : (ماتطلعت للإمارة قط إلا هذا اليوم) ولكن الرسول قال « قم يا أبا عبيدة فلكل أمة أمين وأنت أمين هذه الأمة » .

فبعثه معهم ، ليبشر بالإسلام ويتولى بينهم القضاء ، ويأخذ الحقوق لأربابها ويعطى الحق ، نائبا عن الرسول ، ومنفذا لعهد الصلح .

ونجران وهى موطن المسيحية فى الجزيرة ، ولأهلها لُسن وبيان ، وتاريخ عريق فى الأديان وبراعة فى فنون الحياة والقضاء ، لا ينوب عن

الرسول بينهم ، إلا القوى الأمين الألمعى ، الذى يرد الحجة بالحجة ، ويدفع البرهان بالبرهان ، وتكون سيرته عطرا وشذى ، ونورا ساطعا ، يجذب إلى الدعوة ، أهل الكتاب والمعرفة والبرهان .

فاختيار ابن الجراح شهادة نبوية له بالتفوق فى فنون المعرفة ، وشهادة له بالنزاهة الصادقة والأمانة المشرقة .

وقد أدى ابن الجراح رسالته ، وأشع فى نجران إشعاعا من الخلق الكريم ، كان سببا من الأسباب التى مهدت للإسلام فى نجران وما يجاور نجران .

أبو عبيدة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

شارك أبو عبيدة الرسول فى جميع غزواته ، فشهد المشاهد كلها ، مرموق المكانة ، عالى السيف ، لم يول الأعداء دبره ساعة من قتال ، ولا أدركه وهن أو ضعف ، عند ما تتزلزل القلوب ، وتهن الأعصاب .

كان يوم الأحزاب فى الخندق ، وقد أحيط بالمسلمين ، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفلهم حتى زاغت العيون، وزلزلت القلوب ، وقال المؤمنون: متى نصر الله ؟ .

كان الثابت الجأش الباسم الأمل ، القوى المطمئن إلى نصر الله وسيادة الدعوة ، وعد الله ومن أصدق من الله قيلا .

وكان يوم فتح مكة ، قائد القلب فى الجيش الإسلامى ، يحمل راية الرسول ، فدخل مكة مهللا مكبرا ذاكرا فضل الله عليه وعلى المؤمنين ، إذ أخرجوا من ديارهم ضعفاء أذلة ، وها هم يعودون اليوم أقوياء أعزة .

وكان يوم حنين ، وقد وثبت هوازن وثبتها ، وحملت حملتها ، فأزالت صفوف المسلمين ، وأرسلت فرسانهم بددا فى الصحراء ، الثابت الواثب المنافح عن الرسول ، الذائد عنه بقلبه ، قبل سيفه .

وصاحب الرسول وفيا أمينا مقربا إليه محببا ، يحمل اللواء فى صفوفه يوم القتال ، ويحمل نور الدعوة فى حديثه ساعة الإرشاد .

حتى تأذن ربك بأن ساعة عودة الروح المصطفى إلى مقره الحبيب ،

قد دنت ، وأن تلك الشمس التى أشعت هدى ونورا ، قد آن لها أن ترجع إلى ربها راضية مرضية ، لتعمر جنات عالية عند كريم مقتدر .

أذنت ساعة الوداع ، وأحاطت الملائكة بفراش النبى ، وتزينت السماء تستقبل أكرم خلق الله، وابتهجت الفردوس، وتاهت عدن بالكريم القادم .

ووجف قلب الدنيا ، وهى تودع أعز أنبياء الرحمن ، ورجف المسلمون وزلزلوا ، وثبتت صفوة مختارة ، واستعدت لحمل اللواء ، وهى ترجو من رب السماء ، ما كان يرجو رسولها . من نصر وتأييد وإعزاز .

يوم السقيفة

ملأ الرسول صلوات الله عليه قلوب أتباعه إيمانا و إجلالا للدين الجديد ولشخصه الحبيب .

واستولت روحانية الرسول على أتباعه استيلاء تاما ، كاد أن ينسيهم أن الدنيا ليست بدار خلود و بقاء .

لذلك صُدم المسلمون وزلزلوا ، وزاغت عقولهم يوم نادى المنادى ، بأن الرسول قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وجرت عليه سنن الـكون وأحكامه .

صدموا وزلزلوا ، فما جال بخَلَدهم يوما ، أن الرسول مفارقهم، وأن هذا النور ، الذى يغمر قلوبهم ، و يعمر بيوتهم ، و يملك أرواحهم ، سينتقل إلى ساحة الخلود الأبدى ، حتى أن عمر بن الخطاب ، وهو المطمئن القوى ، كذب سمعه ، وكذب عقله ، وهتف بقلبه ، أن الرسول حى لم يمت ، و إنما ذهب لمقابلة ر به كما ذهب موسى وسيعود .

وكانت ساعات من الروع والهلع ، تعتبر من مواقف التاريخ ، التى تبنى عليها أكبر الحوادث وأبعدها أثرا ، فى توجيهات الدعوة الجديدة .

كان الرسول حلقة الاتصال ، بين السماء والأرض ، وقد تعود المسلمون أن يلجئوا فى توجيهاتهم وقوانينهم إلى السماء .

وكان الرسول هو القائد الأعلى ، للدعوة الجديدة ، والحاكم الأعلى

القابض بيده الرحيمة القوية على زمام القلوب والأمور ، وها هو يفارق فجأة دعوته ، ويفارق أصحابه ، دون أن يترك خليفة يقوم مقامه ، فيتولى أمور المسلمين ، ويسوس دينهم ودنياهم ، ويوحد أهدافهم ويزكى آمالهم وأحلامهم .

والعرب ليست لهم خبرة بالحكم ، ونظام الأمم ، فما سبق لهم ملك كهذا ، ولا تمرسوا بدولة كالتى أنشأها لهم القرآن والإسلام .

وكان من أثر تلك البلبلة ، أن كاد المسلمون أن يرجعوا إلى لحن قديم من ألحان حياتهم الأولى ، لحن العصبيات والجماعات ، التى هدمها الإسلام وأقام مقامها أخوة مطلقة كاملة فوق الألوان والأنساب والعصبيات .

أخوة مطلقة ، عمادها دين واحد ، وقائد واحد ، وهدف واحد ، وحياة لا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل .

ولكن انتقال الرسول الفجائى ، أطلق بعض الألحان من أوتارها ، فهتف الأنصار بأن الأمر لهم ، فهم الذين نصروا وآزروا ، وأقاموا بسيوفهم الدين الجديد .

وظن الهاشميون ، وهم أهل بيت الرسول ، أن الخلافة لهم ، غير منازع فيها ، وبينهم أهل السبق والجهاد والإيمان العريض .

وكادت أن تعود كما قال الحباب بن المنذر الأنصارى « إن شئتم كررناها جذعة » لولا رجال ثلاثة ، صارعوا الحوادث ، وألفوا القلوب ، وجمعوا الزمام فى سرعة حاسمة ، لولاها لتغير مجرى التاريخ ، فى السيار الأرضى .

قال ابن شهاب : «فبينما المهاجرون ، وأهل بيت النبي ، يحتفرون ـ والله أعلم ـ قبر النبي أقبل رجل ، فقرع الباب ، ونادى عمر ، فقال عمر : إنا مشاغيل فما حاجتك ؟ فقال الرجل إنه لا بد لك من القيام ، فقام عمر فقال له إن هذا الحي ، من الأنصار ، قد اجتمعوا بسقيفة بني ساعدة ، ومعهم سعد ابن عبادة زعيمهم ، يدعون إلى خلافته ، وأعدل الناس من يقول : منا أمير ، ومن المهاجرين أمير ، فاذكر هذا لإخوانك واحتالوا حيلتكم فإني أنظر إلى باب فتنة أن لم يغلقه الله عز وجل ، ففزع عمر وراعه ذلك ، وانطلق هو وأبو بكر ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فانطلقوا جميعا حتى دخلوا السقيفة .

وجاء في طبقات ابن سعد « أن عمر بن الخطاب أتى أبا عبيدة ابن الجراح فقال : ابسط يدك فلأبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله ، فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسلمت ، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟ » .

فأرسل عمر إلى أبي بكر ، في بيت عائشة أن اخرج إلينا ، فأجاب أبو بكر الرسول ، إني مشتغل ، فرد عمر الرسول ، ليقول لأبي بكر : إنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره .

وخرج أبو بكر إلى عمر ، لينظر أي أمر يمكن أن يدعى إليه ، فيصرفه عن جهاز رسول الله ، قال عمر « لقد علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمر ، سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالة من يقول : منا أمير ، ومن قريش أمير .

ومضى أئمة المسلمين الثلاثة إلى السقيفة ، ليشهدوا أخطر اجتماع

فى تاريخ الإسلام، ولولا حكمة هؤلاء القادة و براعتهم الخطابية ، ولمسهم أهم ما تقدس القلوب ، من وجوب المحافظة على التراث المحمدى ، ولولا مكانة هؤلاء الزعماء ، لعادت كما قال الحباب جذعة ملتهبة .

وروى الطبرى عن عمر بن الخطاب ، أنه قال « إنهم حينما وصلوا إلى السقيفة وجدوا خطيب الأنصار يقول: «أما بعد فنحن أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، ولكنكم تريدون أن تخذلونا من أصلنا ، فتبعدوننا عن الأمر » .

فلما سكت أردت أن أتكلم ، وكنت قد زورت مقالة أعجبتنى ، أريد أن أقولها بين يدى أبى بكر ، وقد كنت أدارى منه بعض الحد ، فقال أبو بكر على رسلك ، فكرهت أن أغضبه ، فوالله ما ترك كلمة أعجبتنى فى تزويرى ، إلا قالها فى بديهته وأفضل ، ثم قال :

« أما بعد : فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، وهم أوسط العرب نسبا ، ودارا ، وقد رضيت لكم أحد الرجلين : عمر وأباعبيدة ، أما أبوعبيدة فسمعت رسول الله يقول « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، وأما عمر فسمعته يقول : اللهم أعز الإسلام بعمر أو بأبى جهل ، ثم أخذ بيدى و بيد أبى عبيدة فلم أكره مما قاله غيرها ، فما كنت لأتقدم على أبى بكر » .

فقال قائل من الأنصار (الحباب بن المنذر) أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب : منا أمير ومنكم أمير ، وانتضى سيفه ، وهتف نحن أهل

العز والثروة ، وأولى العدد والنعمة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة .

وواثبه عمر بن الخطاب ، فضربه على يده فسقط السيف فأخذه عمر ، ووثب على سعد بن عبادة .

وكادت اللهب أن تندلع ، وينقدح شررها ، لولا أن أسرع أبو عبيدة فأخذ بيد عمر واتجه إلى الأنصار ، وكان محببا لديهم قائلا « يا معشر الأنصار كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير ، ثم أخذ يفيض متحدثا عن فضلهم ، وأثرهم اللامع فى الإسلام وأنهم أبر وأكرم من أن يسلكوا مسلكا فيه شائبة من الدنيا وفيه مساس بمستقبل الأمة الإسلامية .

ولانت وجوه الأنصار ، واستدرجهم أبو عبيدة بلينه إلى ما يشبه الرضى ، وانتهز بشير بن سعد من زعماء الخزرج ، هذه الكلمات الطيبة الحكيمة من أبى عبيدة فقال :

«إنا والله ، وإن كنا أولى فضل فى جهاد المشركين ، وسابقة فى الدين ، ما أردنا إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى من الدنيا غرضا .

وتبدلت نغمة الأنصار ، وانتهز عمر بن الخطاب تلك الحالة النفسية الجديدة التى سادت ، فصاح يا أبا بكر ، أمدد يدك أبايعك ، وبسط أبو بكر يده ، فبايعه عمر ، وبايعه أبو عبيدة وهو يقول : وإنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ » .

وتواثب الأنصار إلى البيعة ، حتى كادوا أن يحطموا بأقدامهم زعيمهم سعد بن عبادة وحسم الخلاف ، وأشرقت أنوار الوحدة من جديد .

وكان يوما من أيام الإسلام الحاسمة ، فلولا تلك البيعة السريعة ، التى قضت على صيحة الشر والانقسام ، ولولا الصديق والفاروق والأمين ، لزلزلت الدولة الناشئة من أساسها .

وكانت فلتة كما قال عمر ، ولكن الله عصم وحفظ ، وكان أبو عبيدة موفقا بارعا فى كلمته السمحة التى ألانت القلوب الصلبة النافرة ، ورب كلمة طيبة أقامت من الملك ما تعجز عنه الجيوش .

وساطته بين الصديق وعلى

وكما ألان أبو عبيدة قلوب الأنصار بكلمته الرقيقة الناعمة ، التى طرقت من القلوب الجانب اللين الهين السريع التأثر ، اعتزم أن يرضى فريق الهاشميين بزعامة على بن أبى طالب ، وبذلك تستقر الخلافة الجديدة ، ويتفرغ المسلمون للقبائل التى ارتدت وثارت .

فتوجه إلى على متلطفا مسالما فقال : « يا ابن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء ، فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ، ودينك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصهرك » .

وأكبر علىّ وفادته ، وأكبر قوله ، فقال له « لن ترى منى إلا مايسر ، ولن يرى أبو بكر إلا ما يرضيه » .

أول وزير للمالية فى الإسلام

واجه أبو بكر فى مطلع خلافته ، ارتداد القبائل ، واندلاع الثورات ، وادّعاء النبوات فى مختلف أنحاء الجزيرة ، فلم يثبت على الإيمان إلا مكة والمدينة والطائف .

فعمد إلى أبطال المسلمين ورجالهم ، يقيم على سواعدهم وعقولهم و بطولتهم ، أسس الأمة الإسلامية ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول « رحم الله أبا بكر فقد كان أعلم بالرجال منى » ومعرفة الرجال ، واكتشاف الكفاءات ، من خصائص البناة الذين يشيدون الأمم و يقودون الوثبات ، وقد حشد أبو بكر لمعاونته ، أكفأ رجال القوة الإسلامية ، فى اختيار موفق ناجح .

عمد أبو بكر إلى خالد سيف الله ، فسله من غمده ، وأرسله لإخضاع المرتدين وتأديبهم و إرجاعهم إلى النور الإسلامى .

وسلم إلى عمر بن الخطاب ، القوى العادل القضاء ، يشرف عليه و يقوم به ، وولى زيد بن حارثة كاتب الرسول ، المكاتبات والرسائل .

وأتى إلى الأمين ابن الجراح ، فولاه بيت المال ــ وزارة المالية ــ وكان بيت المال يتولى النظر فى كل ما يتعلق بأموال الدولة ، من خراج وصدقة

وأعشار وأخماس وجزية ، كما يقوم بالإنفاق على مصالح المسلمين ، وأعطايات الجنود ، وقد قالوا فى تعريفه « إن كل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم ، فهو من حقوق بيت المال ، وكل حق وجب صرفه فى صالح المسلمين فهو حق على بيت المال » .

أما موارد بيت المال ، فتقوم على الزكاة والفىء — وهو خمس الغنائم المكتسبة فى الحروب — والجزية .

وأما النفقات ، فهى تجهيز الجيوش وتموينها و إعدادها ودفع مرتبات شهرية للجنود ، وقد كان كل مسلم فى ذلك الوقت جنديا .

تولى أبو عبيدة بيت المال فى وقت شدة وجدب ، فقد امتنعت القبائل المرتدة عن دفع الزكاة ، بل كانت الزكاة من أكبر أسباب الثورة ، وأصر أبو بكر على إرسال جيش أسامة بن زيد الضخم فضلا عن تأهبه لإعداد الجيوش التى تتولى تأديب المرتدين ، وهى حملات تحتاج إلى المال والسلاح والأقوات .

والنظام المالى فى الإسلام لم يكن قد توطدت دعائمه ، أو وضعت أسسه فكانت مهمة الأمين شاقة عسيرة .

وكلمات التاريخ قليلة فيما يتعلق ببيت المال فى مطلع عهد الصديق ، و إنما يذكر التاريخ أن الإبل والخيل التى كانت تتبع بيت المال فى عهد النبى بلغت أربعين ألفا . ويظهر أن أكثر ممتلكات بيت المال

فى ذلك العهد كانت الإبل والخيل والحنطة ، مع قليل من الأموال التى تجبى من الجزية .

وقد استطاع أبو عبيدة ، بتلك الموارد القليلة ، الوفاء بنفقات الجيوش المحاربة فى مختلف الميادين ، وتموينها فى أخطر مرحلة من مراحل الخلافة الأولى ، حتى انتهت حروب الردة ، وعادت الراية الإسلامية ، تخفق على الجزيرة العربية بأسرها ، فانتدب ابن الجراح لرسالة أخرى هى رسالة الكفاح والفتح ، فانتقل من دنيا المال ، إلى دنيا القتال .

فاتح الشام

الإيمان والفداء

انتهت حروب الردة فدانت الجزيرة بالإسلام ، فاعتزم أبو بكر أن يوجه الجيوش الإسلامية ، لمنازلة أكبر قوتين حربيتين فى العالم ، القيصرية والكسروية .

وما كان يجول بخيال عربى ـ مهما أغرق فى الأحلام ـ قبل البعثة المحمدية ، أن يتطلع هؤلاء البدو ، بأبصارهم إلى العروش القوية الرهيبة فى فارس والروم .

ولكن صوت الإسلام فى الجزيرة ، أدخل على النظام العالمى ، قوة جديدة ، فوارة زاحفة تتطلع فى إيمان وثقة ، إلى قيادة الإنسانية وتوجيهها .

قوة لا تعتمد على عدد ولا عدة ، وإنما تعتمد كما قال أبو بكر على شىء وقر فى الصدور من هذا الدين .

وقد اختلف المؤرخون فى تعداد سكان الجزيرة العربية ، وقت الوحى المحمدى ، فقدّره فريق منهم بنصف مليون ، وارتفع به فريق آخر إلى المليون .

وسواء صدق هؤلاء أو هؤلاء ، فما كان لمثل هذا المليون من الرجال والنساء والصبيان أن يتطلع أو يتخيل ، أنه سيصدم يوما بكتائبه وجيوشه أعظم امبراطوريتين فى عهده .

ولما كان يتطلع أو يتخيل ، أنه سيرث أمجاد تلك الأمم ، ذات البأس والقوة والنعمة .

إنه شيء وقر فى الصدور من هذا الدين ، شيء تترجمه كلمات ثلاث من عناوين التاريخ .

فقد سأل قيصر أحد قواده ، كيف انهزمت جيوشك المدربة القوية أمام هؤلاء العرب الحفاة العراة ؟ فقال :

« يا مولاى ، كان كل جندى معى يؤمن بالهزيمة فانهزمنا ، وكان كل عربى يؤمن بالنصر فانتصروا » .

وسئل أحد جنود المسلمين ، كيف انتصرتم على فارس والروم ، وهم أكثر منكم عددا ، وأوفر عدة ، وأمضى سلاحا ؟ فقال :

« انتصرنا لأن الواحد منا ، إذا رأى سهما منطلقا إلى صدر أخيه ، الواقف إلى جانبه ، قفز من مكانه ووقف أمامه ، يتلقى عنه السهم ، فكان كل منا ، يبيع حياته ليشترى حياة أخيه .

وانهزم أعداؤنا ، لأن الواحد منهم إذا رأى سهما مقبلا عليه ، قفز من مكانه ليختبىء وراء جاره ، فكان كل منهم يبيع حياة أخيه ليشترى حياته » .

وصاح رجل من المسلمين فى اليرموك ، ما أكثر الروم ، وأقل المسلمين! فهتف خالد بن الوليد « ما أقل الروم ، وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان » .

أجل بالإيمان والفداء وروح النصر، كتب المسلمون تاريخهم ، وبتلك المعانى وجه أبو بكر جيوشه إلى العراق والشام .

التعبئة العامة :

صعد أبو بكر إلى المنبر فقال :

لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل .

ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد ، لما ينبغى للمسلم أن يخص به ، هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجا بها من الخزى ، وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة ثم قال :

« اعلموا أيها الناس ، أن رسول الله عول أن يصرف همه إلى الشام فقبضه الله إليه ، واختاره لديه ، ألا وإنى عازم على أن أوجه المسلمين إلى الشام بأهلهم ومالهم .

ثم أمر بالتعبئة العامة ، وأذّن فى الناس بالجهاد ، فهرع إليه رجال من اليمن ومكة والطائف وسائر أنحاء الجزيرة .

ورأى أبو بكر ، أن لا يوجه إلى الشام جيشا واحدا ، بل عول على أن يرسل أربعة جيوش ليشاغلوا الروم ، ويضعفوا وحدتهم .

فجعل على الجيش الأول يزيد بن أبى سفيان ووجهه إلى شرق الأردن وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ، وأمره بالمسير إلى البلقاء ، وعلى الجيش الثالث عمرو بن العاص ، ووجهه إلى فلسطين ، وقد تألف كل جيش من هذه الجيوش من أربعة آلاف مقاتل .

وقاد أبو عبيدة الجيش الرابع وعدده ثمانية آلاف ، ووجهته حمص ، كما أسندت إليه القيادة العامة على الجيوش الغازية .

أبو بكر يوصى قواده :

وقد أوصى الخليفة قواده وصية تعتبر وثيقة تاريخية عظيمة الأثر فى الدلالة على الروح الإسلامية فى الحروب .

قال مخاطبا كل قائد :

إذا سرت فلا تضيق على نفسك ، ولا على أصحابك فى سيرك ، ولا تغضب على قومك ، ولا على أصحابك ، وشاورهم فى الأمر ، واستعمل العدل ، وباعد عنك الظلم والجور ، فإنه لا يفلح قوم ظلموا ، ولا نصروا على عدوهم .

وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال ، أو متحيزا لفئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير .

وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ، ولا شيخا ولا امرأة ، ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ، ولا تغدروا إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا إذا صالحتم .

الزحف .

وتحركت الجيوش الإسلامية إلى سوريا ، فاخترقت الحدود من أربع جهات ، وأشعلت نار الحرب فى أرض قيصر .

وما قدر الروم من قبل مثل هذا الغزو ، وما كان للعرب لديهم وزن فى منطق القوة والبأس فاستهانوا بأمرهم ، وينسب بعض رجال التاريخ إلى الإمبراطور ، أنه مال إلى مصالحة العرب ، فعقد مجلسا من قواده ، واستشارهم فى التنازل عن نصف خراج الشام ، وعن جزئها الجنوبى ، المأهول بأكثرية عربية ، وبذلك يتقى الروم شر تلك الحرب .

ونسبوا إليه أيضا أنه قال لرجاله « لئن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه خير لكم من أن يغلبوكم على الشام كلها ، ويزاحموكم على جبال الروم .

فقال قواده : إن من العار أن يعقد الروم صلحا مع شراذم بدوية ، لا تلبث جيوش الإمبراطورية أن تلقى عليها دروس الأدب والقتال .

وتلك الرواية من أحداث التاريخ ، التى يدور حولها جدل وحوار طويل ، بين التكذيب والتصديق .

وسواء قصد الإمبراطور ، الصلح أو لم يقصده ، فقد حشدت الإمبراطورية قواها الضخمة واعتزمت ، كما قال قواد قيصر ، أن تؤدب شراذم العرب ، وتلقى عليها درسا فى القتال » .

أبو عبيدة يفتح حمص :

دخل أبو عبيدة الشام مارّا بوادى القرى ، حتى وصل إلى مآب ، فالتقى بقوة عسكرية من الروم فهاجمها ومزقها ـ فخضعت له المقاطعة وصالحه أهلها ـ ثم واصل زحفه إلى أن بلغ الجابية فاحتلها بدون مقاومة تذكر ،

ثم تقدم إلى حمص ، وهي أحدى مدن سوريا الرئيسية ، سالكا الطريق الواقع شرقي دمشق ، فحاصرها ونازلها ، وضيق عليها الخناق ، حتى خضعت وفتحت أبوابها ، فدخلها منتصرا مبتهجا ، فقد حقق بفتحها هدفا رئيسيا من أهدافه ، وكانت حمص أول مدينة كبيرة في سوريا الوسطى ، دخلت في حوزة الجيوش الإسلامية .

وثارت ثائرة الروم لسقوط حمص ، فتنادوا بالقتال ، وتحركت الإمبراطورية بأسرها ، وتجمعت جيوشها في أنطاكية ، بقيادة « تيودور » قائد الروم الأكبر ، في عدة قدرها ابن الأثير ، وهو أكثر مؤرخي العرب اعتدالا بمائتين وعشرين ألفا ، وزحفت تلك القوة إلى الجنوب قاصدة حمص .

كما حشد الروم جيشا آخر في فلسطين ، حتى بلغت قواهم في هذا الميدان مائة ألف مقاتل .

وبذلك أعد الروم خطة محكمة لحصر الجيوش العربية وتطويقها وسحقها عند التلاحم والنضال .

وأدرك أبو عبيدة هول الخطر المحيط بالجيوش الإسلامية الضئيلة العدد المتفرقة في مساحة ضخمة ، وسط تلك الأمواج من الجيوش المعادية ، فكتب إلى أبي بكر يستشيره ويستمده ، وندب أبو بكر الناس للشام ، وأخذ يرسل إلى أبي عبيدة النجدات متلاحقة .

وإذن فالموقف العسكري يقضي على أبي عبيدة بأن ينازل أكثر من

ثلاثمائة ألف جندى ، بقوة إسلامية لم تزد بكل الامتدادات التى أرسلها الخليفة عن أربعين ألفا ، متفرقة منقسمة إلى أربع وحدات .

أدرك أبو عبيدة أن الجيوش الإسلامية المتفرقة ، لا تستطيع مقاومة تلك القوات الكبرى التى أعدها الروم ، فكاتب القواد الثلاثة ، يستشيرهم ويستمدهم الرأى ، فأجمعوا على الجلاء عن المناطق التى احتلوها فى الداخل ، حتى لا يحصرهم العدو داخل بقاع نافرة مخاصمة ، وكتب عمرو بن العاص إلى أبى عبيدة يقول :

« إن الرأى لمثلنا الاجتماع ، فإنا إذا اجتمعنا لن نغلب من قلة ، وإن تفرقنا لا تقوم فرقة بمن استقبلها لكثرة عدوها » .

وأقر أبو عبيدة تلك الخطط ، فجلا بقواته عن حمص ، وأعاد إلى أهلها الجزية قائلا « يا أهل حمص ، قد شغلنا عن نصرتكم ، والدفاع عنكم ، فأنتم على أمركم ، ولا حاجة لنا فى أموالكم » فقال أهل حمص « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندافعن عن المدينة مع عاملكم » .

وجلت بقية الجيوش عن البلاد التى احتلتها ، وارتدت سليمة متماسكة حتى التقت بجوار بصرى وامتدت فى المناطق المجاورة حتى اليرموك ، وأخذ أبو عبيدة يعد العدة للمعركة الكبرى التى لم يبق شك فى أنها ستدور فى تلك المنطقة ، التى اختارها قواد العرب ، لقربها من حدود الحجاز والصحراء حصن العرب الحصين .

خالد فى الميدان :

أدرك الخليفة فى المدينة الخطر الذى يحيط بجيوشه فى سوريا ، وقد نفدت من لديه الإمدادات واستغرق العراق والشام قواته ، فرأى أن يمد الشام بجيوش العراق المنتصرة ، فكتب إلى خالد بن الوليد أن يغادر الحيرة على عجل مع نصف جيشه ، لنجدة أبى عبيدة ، ويترك النصف الآخر بقيادة المثنى بن حارثة لمواجهة فارس .

وكتب إلى أبى عبيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من عبد الله بن عتيق بن أبى قحافة إلى أبى عبيدة بن الجراح .

« سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع ، فإنى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

وكتب خالد من الحيرة إلى أبى عبيدة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة بن الجراح .

« سلام الله عليك ، أما بعد : فقد أتانى كتاب خليفة رسول الله ، يأمرنى بالسير إلى الشام والقيام على جندها ، والتولى لأمرها ، والله ما طلبت ذلك قط ، ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذى كنت عليه ،

لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمراً ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك » .

وفى تلك الرسائل المتبادلة معان تستوقف الأفكار ، وتبعث على التأمل والإكبار ، فالخليفة يكبر ابن الجراح إكبارا عظيما لمكانته من الدعوة الإسلامية ، حتى لقد رشحه للخلافة يوم السقيفة وهى أخطر قيادة إسلامية ولكنه يرى أن لخالد فطنة ولمحة عبقرية فى الحرب ، ليست لأبى عبيدة بل ليست لقائد آخر فى صفوف المسلمين ، والملحمة ملحمة عسكرية ، يتفاضل الناس فيها بالبراعة والكفاءة الفنية ، لا بالتقوى والأسبقية الإسلامية .

فمصلحة الأمة الإسلامية إذن ، تحتم على الخليفة أن يرسل عبقرى العسكرية الإسلامية لمنازلة الروم .

وخالد القائد المنتصر فى حروب الردة ، المنتصر فى حروب العراق ، وللنصر نشوة وخيلاء ، خالد الذى يكتب له الخليفة « لقد أردت أن أنسى الروم بك وساوس الشيطان » لاينسى حين يخاطب أبا عبيدة ، أن يقول له أنت سيد المسلمين ، ولا ينسى أن يرضيه بقوله : « إنه ما طلب الإمارة عليه ، بل يقول له : « لا نعصيك ، ولا نخالفك ، ولا نستغنى عن رأيك »

هذا هو أدب الإسلام ، وأخلاق الزعماء ، بل أخلاق العسكرية المجاهدة فى سبيل فكرة ومبدأ ، يرتفع بها عن النشوة والخيلاء .

اليرموك :

تحرك الجيش الرومانى الأكبر من أنطاكية إلى حمص ، فانتقم من

أهلها لموالاتهم العرب انتقاما رهيبا ، ثم واصل الروم زحفهم حتى التقوا بالعرب فى وادى اليرموك ، فنزلوا الوادى بجيوشهم الضخمة الهائلة العدة ، وهى جيوش بلغت على أنصف التقديرات ربع مليون .

وبإزائهم قوات الجيش الإسلامى ، التى أضيف إليها عشرة آلاف جندى أتى بهم خالد من العراق ، فبلغت مجتمعة خمسين ألفاً .

وتأهب الفريقان للمعركة التى تقرر مصير الشام ، فإما أن يرتد الروم إلى أوربا ، وإما أن تخلص آسيا الرومية للاسلام .

المسلمون يدعون الى السلام :

وعملا بمبادئ الإسلام فى الدعوة ، توجه أبو عبيدة على رأس وفد من أصحابه إلى معسكر الروم لمقابلة قائدهم « تيدور » لعرض شروط المسلمين المعروفة لحقن الدماء ، وهى :

الدخول فى الإسلام ، أو . .

دفع الجزية ، أو . .

تحكيم الحسام فى حالة الرفض ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء .

وأعد تيدور سرادقا فخما ، تجلت فيه العظمة الرومية ، لاستقبال ابن الجراح وأصحابه ولكن أبا عبيدة ، أبى دخول السرادق قائلا : « إن ديننا يمنعنا من افتراش الحرير والديباج » .

ثم عرض أبو عبيدة على تيدور وأصحابه رسالة الإسلام ومبادئه ، وشرح لهم أهداف الدعوة الإسلامية ، وما فيها من حرية ومساواة وإخوة

وأخلاق ، وتوحيد وخير وسلام ـ فلم يستمعوا إليه ، فعرض عليهم الجزية فقال له تيدور « إننا نعطيكم أموالا وهدايا ، وترجعون إلى بلادكم » .

فقال أبو عبيدة « إننا ندعوكم إلى ديننا ، أو الخضوع ودفع الجزية ، فإن أبيتم فموعدنا معكم الحسام والقتال » .

واستعد الجيشان ، فأدخل خالد لأول مرة فى تاريخ العسكرية العربية نظام الكراديس كل كردوس يضم ألف مقاتل ، ولكل كردوس قائد ، ثم ألف من هذه الكراديس فرقا ، فجعل كل عشرة منها فرقة ، وعين لكل فرقة قائداً كبيراً .

المرأة العربية فى الميداں :

وأنزل المسلمون نساءهم ـ وكنّ يصحبنهم فى حروب الشام ـ على تلّ فى مؤخرة صفوفهم ، مع أطفالهم وذراريهم ، وكان للمرأة وظائف خطيرة فى الميدان ، منها العناية بالجرحى والمرضى ـ الهلال الأحمر ـ وتوزيع الماء على المجاهدين فى أثناء المعركة ، وإثارة الحماس فى الصدور بما ينشدن من أناشيد ، ويلقين من عظات ، بل ويشتركن فى القتال ، إذا ظهر الضعف أو العجز فى صفوف الرجال .

وللمرأة العربية تاريخ مشرق فى معارك الشام ، ومواقف رائعة يوم اليرموك ، فقد ساهمن بأيديهنّ وألسنتهنّ وحنانهن فى النصر ، وكان فى مقدمة من اشترك منهن فى اليرموك ، أسماء بنت أبى بكر ، وهند بنت

عتبة ، وأم أبان ، وخوله بنت الأزور ، وعفيره بنت عفار ، وغيرهن من شريفات النساء .

وزار أبو عبيدة معسكر النساء قبيل المعركة ، فقال لهن : « خذن بأيديكن أعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين أيديكن ، وحرضن المسلمين على القتال، فإن كان الأمر لنا والظفر، فكنّ على ما أنتنّ عليه ، و إن رأيتن أحداً من المسلمين تقهقر، فاضربن وجهه ، وارجعنه بحجارتكن ، وارفعن إليه أولادكن ، وقلن له : قاتل عن أهلك وعن الإسلام » .

ونظم الروم صفوفهم بتلك البراعة الحربية المعروفة عنهم ، فأعدوا فرق الخيالة وهى كثيرة ضخمة ثم فرق الرماة المدربين الذين هزموا فارس ، وأقاموا فرق الانتحار مكبلين بالسلاسل ، مرتبطا بعضهم ببعض حتى لا يفروا أو يتقهقروا .

القتال :

ونشب القتال ، و برز المسلمون للزحف ، فى تعبئة لم يعرفها العرب من قبل ، بنظام الكراديس وجعلوا من جيوشهم ثلاثة خطوط للدفاع ، وحشدوا الرماة على الجناحين ، وقاد الجناح الأيمن عمرو بن العاص ، والجناح الأيسر يزيد بن أبى سفيان ، وأقام أبو عبيدة فى القلب مع فرقته ، تحت راية أبى بكر التى عقدها له يوم سفره إلى الشام ، وهى راية رسول الله الصفراء التى سار بها إلى خيبر ، وتولى خالد القيادة العامة .

وأخذ المسلمون يقرءون سورة الأنفال ، لإذكاء الحماس ، وتثبيت القلوب ، ثم خطب أبو عبيدة فقال :

« عباد الله ، انصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم ، يا عباد الله اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ، ومرضاة للرب ، ومدحضة للعار ، لا تتركوا مصافكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدءوهم القتال ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت إلا عن ذكر الله عز وجل فى أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله » .

واصطدم الفولاذ بالفولاذ ، والتقى الإيمان بالإيمان ، وثبتت القلة للكثرة واستبسل الروم وصدقوا الحملة ، واستعانوا بخيلهم وسهامهم وكثرتهم ، فأزالوا المسلمين عن صفوفهم .

وخرج نساء المسلمين يضربن وجوه المنهزمين ، ويساهمن فى القتال ، ويشعلن الدماء فى القلوب .

وتنادى أبطال المسلمين بالصبر والثبات ، وصاح عكرمة من يبايع على الموت فبايعه ٤٠٠ من صفوة الأبطال الفدائيين ، ثبتوا فى القلب ثبات الجبال ، أمام العدو المتهافت على مقر القائد العام ، حتى أوهنوا هجوم الروم ونالوا من حدته ، بعد ما حصدهم السيف وفى طليعتهم عكرمة .

ولما انكسرت حدة الهجوم تراجعت صفوف المسلمين ، فحمل القلب بقيادة ابن الجراح حملة صادقة ، وقام عمرو بحركة التفاف موفقة على الجانب الأيسر ، اقترنت بهجوم عام على جناحهم الأيمن فاضطربوا وتراجعت صفوفهم ، ثم واثبهم خالد بفرسانه ، حتى ألقاهم فى مستنقعات اليرموك وكان

الليل قد أرخى سدوله ، وسد الظلام أبواب النجاة فى وجوه الهار بين ، فمن لم يأخذه السيف هلك فى المنخفضات التى جعلها الروم خط رجعتهم ، وحلت النكبة الكبرى بالفرق التى قيد أفرادها بالسلاسل ، فكان المقرون بالسلسلة ، متى هوى فى مستنقع جر زملاءه فيموتون جميعا ، حتى بلغ من غرق منهم فى اليرموك ثمانون ألفا .

وكتب النصر للمسلمين فى أكبر معركة خاضوها ، بل لعلها أكبر معركة فى التاريخ القديم فقد فقد فيها الروم مائة ألف ، وما نظن أن معركة فى التاريخ قبل اليرموك ذهب ضحيتها مثل هذا العدد الرهيب .

أبو عبيدة يتولى القيادة العامة :

مات أبو بكر قبل معركة اليرموك ، بعشرين ليلة ، فبويع عمر بالخلافة فكان أول أمر أنفذه ، أنه أقال خالدا من منصب القيادة العليا فى الشام ، وولى مكانه أبا عبيدة ، وكان عمر ينقم على خالد ، بعض أشياء منذ حروبه فى اليمامة .

وأرسل بذلك كتابا مع رسول ، وصل إلى اليرموك والمعركة فى أقصى شدتها ، واستلم أبو عبيدة الخطاب وقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح .

« أوصيك بتقوى الله ، الذى يبقى ولا يبقى سواه ، الذى هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد

ابن الوليد ، فقم بأمرهم ، بحق الذى عليك، لاتقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية إلا فى كشف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة ، وقد ابتلاك الله بى وابتلانى بك ، فغض بصرك عن الدنيا ، واله قلبك عنها ، إياك أن تهلكك ، كما أهلكت من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم ».

ولم يشأ أبو عبيدة والمعركة محتدمة أن يفاجئ خالد بالعزل ، فكتم الأمر حتى انتهت الموقعة .

وأبقى أبو عبيدة خالدا معه — بمثابة رئيس أركان حرب له — وكان بين البطلين صلات من المودة والألفة الروحية ، عززها جهاد مشترك ، وكفاح طويل فى الجزيرة والشام .

فتوحات ابن الجراح :

كتب أبو عبيدة إلى عمر يبشره بالنصر ، ويقول له : إن جيوش الروم اتجهت إلى فلسطين ، وإنه يخشى أن يؤتى من ناحيتهم ، فهل يهاجم دمشق أو حمص ، أم يبدأ بفلسطين فينجز أمرها ويقضى على جيش الروم المحتشد فى ربوعها .

فكتب إليه عمر : أن ابدأ بدمشق ، فإنها حصن الشام ، وبيت ملكهم ، وأشغل عنك أهل فلسطين بخيل تكون فى نحورهم . فأرسل أبو عبيدة عمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة إلى فلسطين ، وسار ومعه خالد إلى دمشق .

فتح دمشق :

وصاح المنادى فى أرض الروم ، بأن العاصمة فى خطر ، فتحرك الإمبراطور حتى وصل إلى أنطاكية ، واستنهض عالم الروم لنجدة دمشق ، درة الإمبراطورية ، وأشرف بنفسه على تموينها و إرسال النجدات إليها .

وعسكر أبو عبيدة فى مرج الصفر قبل دمشق بمرحلة ، ليستكمل عدته وليرقب سير القتال فى فلسطين للنجدة عند الحاجة .

وآنست قوات دمشق فى نفسها قوة ، فبرزوا لمهاجمة ابن الجراح وقواته والتقى الجمعان فكانت معركة « مرج الصفر » أحد معارك التاريخ بين الروم والعرب ، وقد استبسل الروم وتنادوا بالثأر والفداء ، وطالت المعركة ، ثم انتهت بهزيمة تامة للروم ، بعد أن جرح من المسلمين أربعة آلاف ، غير القتلى .

وفتح النصر فى هذه المعركة ، أبواب دمشق ، فزحف أبو عبيدة إلى الغوطة ، وهى جنات دمشق وحدائقها ، فاكتسحها ثم حاصر دمشق ، وأقام حاميات على أبوابها الخمسة ، وكانت دمشق ذات أبراج وأسوار وحاميات مسلحة بأجود السلاح ، وفرسان مدربين على القتال ، قد تبايعوا على الموت .

وكان سلاح العرب السيوف والرماح والسهام والحراب ، ولم يكونوا يملكون شيئا من معدات الحصار ، فضايقتهم الأسوار ، وهم رجال هجوم ووثبات ، لا جمود وحصار ، ودام الحصار ستة أشهر وشدد أبو عبيدة قبضته

على دمشق ، فلانت أسوارها ، وخضعت حاميتها ، وفتحت مدينة الروم التاريخية أبوابها للعرب وألقت إليهم السلم .

وعقد أبو عبيدة مع أهل دمشق صلحا سخيا ، ثم استقرّ بها ، فنظم شئونها وعيّن لإدارتها يزيد بن أبى سفيان ، وكتب إلى الخليفة بالنصر .

وجاء رد عمر بمواصلة القتال ، وإرجاع جند العراق إلى العراق ، فمعركة القادسية على الأبواب ، والموقف خرج فى أرض فارس .

وأرسل أبو عبيدة جيش العراق إلى العراق ، ولكنه استبقى معه صديقه خالد ، ثم توجه إلى حمص ففتحت أبوابها واستسلمت صلحا ، ثم قصد حماة ففتحها ، ثم انحرف شمالا إلى معرة النعمان فاستولى عليها ، وبذلك أتم أبو عبيدة فتح المدن الكبرى فى سوريا الداخلية ، ولم يبق إلا المدن الساحلية الممتدة من خليج الاسكندرونة شمالا حتى ميناء صور جنوبا ، فانتقل بقواته المنتصرة الفخورة إلى صور وما يليها حتى رفرفت الراية الإسلامية على ساحل الروم ، وتحطمت أضخم قوة عسكرية حشدت لمواجهة الوثبات العربية .

وواصل أبو عبيدة الزحف إلى قنسرين فهزم القوات الجديدة التى حشدها الإمبراطور لإنقاذ سوريا من الفاتحين وقادها أشهر قواده «ميناس» واستولى أبو عبيدة على قنسرين وحلب ، فدانت له القواعد الشمالية ، حتى استطاع أن يصل قواته ، بالقوات الإسلامية فى العراق .

ثم عطف على بقية المدن الساحلية ، فسلك الطريق الرومى القديم

الممتد بين حلب واللاذقية ، فاستولى على اللاذقية ، و بيناس ، وطرطوس ، والتف بجيشه على الساحل اللبنانى حتى التقى بقواته العربية فى فلسطين .

ثم اتجه أبو عبيدة إلى أنطاكية ، آخر المدن الكبرى السورية ، فاستولى عليها وأخضعها و بذلك أتم أبو عبيدة فتح الشام .

ونظم أبو عبيدة مملكته الجديدة ، فأقام فى كل مدينة حكومة مدنية وقوة عسكرية وأشاع العدل والأمن والسلام فى ربوعها ، ثم اتخذ من حمص مقرا لقيادته ، لقربها من الحجاز ، وتفرغ للاصلاحات الداخلية الكبرى ، والانتقال بتلك الشعوب ، من حالتها الأولى ، إلى التعاليم والمبادئ والأنظمة الإسلامية .

و بتلك الفتوحات الضخمة ، التى ارتفع بها أبو عبيدة إلى مصاف الفاتحين العالميين ، اتصل الحجاز بالعراق والشام ، وتكونت الإمبراطورية العربية الإسلامية ، وتحققت أهداف كانت تعتبر خيالا تظلله الأحلام .

أمير الشام :

خاض أبو عبيدة عشرات المعارك الحربية ، والتقى بجيوش ضخمة ، متفوقة في العدد والعدة فما نكست له راية ، ولا تحطم بيده لواء ، ولا هزم له جيش ، حتى لقب بالقائد الميمون الطائر .

وفتح أبو عبيدة عشرات المدن صلحاً : فما تعنت ولا بغى ، بل أنصف ووفى ، وأعطى الحق فى لين وسماحة ورضا ، واقتحم عشرات المدن عنوة ، فما أذهله النصر عن الرحمة ، ولا دفعه الفوز إلى الثأر أو الانتقام ، بل كان

أبدا فى صلحه وحربه ، الرحيم العطوف ، الهين اللين فى غير ضعف ولا صلف

كان عماده فى حربه ، الحركة السريعة المفاجئة ، والإيمـان القوى بالنصر ، والثبات حتى الموت عند اللقاء .

وكان خلقه الحربى ، أن يضع نفسه فى طليعة جيشه هدف الأسنة ، غير ضنين بها ، ولا فاديها بجنده ، وأن يلين جانبه لجنوده ، ويشرف بنفسه على راحتهم ، وأحوالهم وشئونهم ، فيشارك المتألم أمله ، والحزين حزنه ، والمبتهج فرحه .

وكان طابعه الغلاب ، الزهد والتقشف ، والترفع عن الدنايا ، وما يشوب الألفاظ من قسوة أو بذاءة ، وحب عظيم رحب الآفاق للناس كافة ، و إيمان ضخم ، بأن العزة فى الإيمان ، فمن اعتز بما سواه ، فقد ذل وهان .

انتهت حروب الشام ، وقرت السيوف فى أغمادها ، فولاه الخليفة إمارة سوريا ، يسوسها و يرعاها ، ويقوم على شئونها ، ويحمى ثغورها وحدودها ، من وثبات الروم البرية والبحرية .

فجعل أبو عبيدة على كل مدينة حاكما وحامية ، ثم كوّن فرقا ، سميت بفرق النجدة ـ أو الجيوش الطائرة ـ ترابط فى كل كورة ، على تمام الأهبة والعدة ، لتسرع إلى النجدة ، إذا تمرد متمرد ، أو زحف مغامر .

ثم عمد إلى الإصلاحات الداخلية ، وكانت علة سوريا الـكبرى ، أنها تموج بالطوائف المختلفة ديناً ولغة وجنساً ، من روم و يهود وعرب وأنباط ، طوائف غير متكافئة فى الحقوق والواجبات ، غير متكافئة فى الأموال والثمرات ، فنشر العدل والمساواة ، وثبت قواعد الأمن ، وأدخل الهدوء

والاستقرار فى النفوس القلقة الخائفة ، التى كان يستباح دمها ومالها فى عهد الرومان .

الإسلام والجزية :

ونظم أبو عبيدة جباية الأموال من الذميين فى غير إسراف أو إجحاف ، وقد عاب بعض المؤرخين الأوربيين على الإسلام نظام الجزية ، وهى فى حقيقتها تهدف إلى المساواة التامة بين المسلمين وغيرهم .

فكما تجب الزكاة على المسلم ، تجب الجزية على الذمى ، حتى يتكافأ الفريقان وهما رعية لدولة واحدة فى المسئولية وواجبات الحياة .

وهى فوق هذا ضريبة سلاح ، لأنها تفرض على من لو كان مسلماً لوجب عليه الالتحاق بصفوف الجندية ، ولذا أعفى من الجزية من يعفى من القتال ، كالشيوخ والنساء والأطفال .

وقد رد أبو عبيدة الجزية إلى أهل حمص ، حينما اضطر إلى الجلاء عنها قائلا :

« قد شغلنا عن حمايتكم ، فلا حاجة لنا فى أموالكم » فهى إذن ضريبة تكافؤ ، تقوم مقام الزكاة ، وضريبة سلاح يفتدى بها من الجندية

وشبهة أخرى فقد قالوا إن من أسباب انتشار الإسلام ، بين الذميين رغبتهم فى التخلص من الجزية ، وحبهم للمساواة مع الفاتحين .

أما الجزية فلم تكن أثقل من الزكاة ، ولا أرهب من القتال ، وأما المساواة فما عرف الإسلام يوما نظام الترفع والتعالى ، أو التميز بين الأجناس والألوان ، بالادعاء والكبرياء ، والرسول صلوات الله عليه كان

يكره أن يتميز عن سواه ، ويغضب ممن يقوم له ، أو يقبل يده ، قائلا :
« هذا تفعله الأعاجم مع ملوكها ، إنما أنا عبد الله » .

رسالة الإسلام :

رسالة الإسلام التى حملها رجال الفتح إلى العالم ، هى كما قال وفد العرب ، لرستم قائد الفرس :

« إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنو آدم وحواء ، إخوة لأب وأم لا تفاضل بينهم » .

وتلك هى السياسة التى طبقها أبو عبيدة فى الشام ، الناس بنو آدم وحواء ، إخوة لأب وأم لا تفاضل بينهم » .

ولم يترك الفتح فى نفوس الطوائف السورية أثراً من حقد أو موجدة فقد كانت حرب المسلمين شريفة عادلة ، عنوانها وصية أبى بكر لأول جيش أرسله :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولاشيخاً كبيراً ، ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة » وسوف تمرون بأقوام ، قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

وتلك أوسع معانى الرحمة فى الحروب ، وأوسع معانى الاحترام للعباد والرهبان وبتلك السماحة المشرقة ، أحب أهل الشام أبا عبيدة وجيشه ، وبتلك السماحة ، اعتنق من اعتنق الإسلام منهم ، إيمانا واقتناعا .

طاعون عمواس :

ومشت الريح رخاء بسفينة الحياة السورية ، وابتدأت تلك البلاد تأخذ الطابع العربى والمظهر الإسلامى ، وامتدت الفتوحات من ربوعها إلى مصر والساحل الإفريقى .

ثم اكفهر الأفق ، وغامت السماء ، فظهرت بثرات سوداء على البشرة الإنسانية عجب لها الناس ! ثم صاح مضطرب ، صيحة مخنوقة ، إنه الطاعون ؟ واندلعت ناره تحرق الأرواح وتفتك بالضحايا .

روى الطبرى : أن عمر بن الخطاب اعتزم أن يزور الشام ، مع فريق من المهاجرين والأنصار ليرى مدى الإصلاحات التى تمت فيه ، وليرقب الولاة والحكام ، جريا على سننه المعروفة فى التاريخ .

فلما بلغ « المدورة » وهى آخر حدود الحجاز ، وأول حدود سوريا ، جاءته الأنباء بأن مرض الطاعون قد انتشر فى الشام .

وتردد عمر ، أيدخل الشام ، والطاعون يفتك بأهلها ، فيعرض نفسه ، ويعرض من معه للخطر ، أم يرجع إلى المدينة .

واستشار عمر أصحابه فاختلفوا ، وقال فريق منهم : لقد خرجت تريد وجه الله ، ولا نرى أن يصدك عن هدفك بلاء . وقال فريق آخر إنه بلاء وفناء ، ولا نرى أن تقدم عليه ، ومال عمر لهذا الرأى فاعتزم الرجوع إلى المدينة .

وفى أثناء تلك المناقشة حضر أبو عبيدة من داخل الشام لاستقبال الخليفة ، فاستشاره عمر وأظهر له ، أنه قد اعتزم الرجوع .

فقال له : يا أمير المؤمنين ! أفراراً من قضاء الله ؟ فقال له عمر ، فراراً من قدر الله إلى قدر الله ، ثم قال :

« أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس يرعى من يرعى الخصبة بقدر الله ، و يرعى من يرعى الجدبة بقدر الله » .

وكان عمر يكره أن يخالفه ، لما يعرف من مقامه وفطنته ، فقال معاتباً « لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة » .

و بينما عمر وأبو عبيدة فى حديثهما ، جاء عبد الرحمن بن عوف ، وكان غائبا ، فسأل عن الخبر ، فذكروا له الأمر ، فقال أنا عندى الخبر اليقين ، لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه » .

وفى هذا الحديث الشريف آيات تجلت ووضحت فى عصرنا الحاضر ، على ضوء التقدم العلمى فى الطب ، فهو كناية عن نظام الحصر الصحى ، الذى يعزل المصابين عن الأصحاء حتى لا تسرى العدوى و يعم البلاء .

وفيه أبلغ الردود على من ينظر إلى القضاء والقدر نظرة ضيقة ، و بهذا الحديث وضح الحق للمختلفين ، فعاد عمر ومن معه إلى المدينة ، ورجع أبو عبيدة إلى الشام .

عاد عمر إلى المدينة ، وفى فمه زفرات ، وفى قلبه حسرات على أبى عبيدة فهو يجله و يكبره و يرى فيه قوة للمسلمين ، وعونا على عظائم الأمور ، ومن

الخطر أن تترك مثل تلك الثروة الضخمة عرضة للموت بأنامل الطاعون .

وعمر يعلم أن أبا عبيدة لن يفارق الشام ، ولن يحرص على حياته دون حياة المسلمين فاحتال لنجاته حيلة بارعة ، استعمل فيها سلطته كخليفة ، فكتب إليه بلغة الأمر طالبا منه العودة .

روى ابن عساكر عن أبي موسى الأشعرى ، أن عمر كتب إلى أبي عبيدة « أنه قد عرضت حاجة عندنا ، ولا غنى فيها عنك ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فإنى أعزم عليك ، إن أتاك كتابى ليلا ، أن لا تصبح حتى تركب ، و إن أتاك نهارا ، أن لا تمسى حتى تركب إلى » .

فلما قرأ أبو عبيدة رسالة أمير المؤمنين ، قال لقد عرفت حاجته ، يرحم الله عمر ، إنه يريد أن يستبقى من ليس بباق ، ثم أرسل إليه :

« قد عرفت حاجتك التى عرضت لك ، فخلنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ، فإنى فى جند من أجناد المسلمين ، لا أرغب بنفسى عنهم » .

فلما قرأ عمر الكتاب بكى ، فقيل له مات أبو عبيدة ، قال ، لا . ! ؟

بكى عمر ، لأنه استنشق من تلك الرسالة رائحة الموت للأمين ، أمين الله ، وأمين النبي ، وأمين المسلمين .

بكى لأنه أدرك ، كيف كان يخادع نفسه ، إذ رام مخادعة الأمين ، فما ينبغي للقائد أن يفارق جنده ساعة الخطر ، وما ينبغى أن يطلب من أبى عبيدة مثل هذا .

إلى الرفيق الأعلى :

وانتشر الطاعون فى ربوع الشام ، وفتك بالجيوش الإسلامية ، والطاعون بثرة مع لهب واسوداد ، ويسمى بالطعن ، وكانت العرب تلقبه برماح الجن .

وكان أبو عبيدة كما جاء فى رواية ابن عساكر ، فى ستة وثلاثين ألفا من المسلمين ، فلم يبق منهم إلا ستة آلاف ، فكان إذا مات رجل من جنده بكى ، وسأل الله الشهادة ، ثم طعن فعلم أن الله قد استجاب له .

عن العرباض بن سارية قال « دخلت على أبى عبيدة فى مرضه الذى مات فيه ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المطعون شهيد ، والمبطون شهيد ، والغريق شهيد ، والحرق شهيد ، والهدم شهيد » ثم جمع خاصة قواده فقال :

وصيته :

إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها ، لن تزالوا بخير ، أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا ، وحجوا ، واعتمروا ، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ، ولا تغشوهم ، ولا تلهكم النساء ، فإن امرأ لو عمر ألف حول ، ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى ترون ، الله كتب الموت على بنى آدم ، فهم ميتون ، وأكيسهم أطوعهم له ، وأعملهم ليوم ميعاده » .

يبرئ ذمته :

ثم قال « أقرئوا أمير المؤمنين السلام ، وأعلموه أنه لم يبق من أمانتى شئ إلا وقد قمت به وأديته إليه ، إلا ابنة خارجة ، نكحت فى يوم بقى من عدتها ، لم أكن قضيت فيها بحكومة .

وقد كان بعث إلى بمائة دينار فردوها إليه ، فقالوا إن فى قومك حاجة ومسكنة فقال ، ردوها إليه ، وادفنونى من غربى نهر الأردن إلى الأرض المقدسة .

ثم قال « ادفنونى حيث قضيت ، فإنى أتخوف أن يكون سنة من بعدى ، يا معاذ صلى بالناس ، والتحق بالرفيق الأعلى ، رضوان الله عليه ، سنة ثمان عشرة هجرية وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، ولم يعقب ولدا ، ودفن بغور الأردن ، وقبره معروف يزار و يقصد .

معاذ يرثيه :

ووقف معاذ بن جبل ، والدموع تبلل وجهه ، فقال :

يا أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحا ، فإن عبدا لا يلقى الله تائبا عن ذنبه ، إلا كان حقا على الله أن يغفر له ، من كان عليه من دين فليقضه ، فإن العبد مرتهن بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجرا ـ أى مقاطعا ـ أخاه ، فليلقه فليصالحه ، ولا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث .

والدين العظيم ، إنكم أيها المسلمون ، فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبر صدرا ، ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حبا للعامة ، ولا أنصح للعامة منه ، فترحموا عليه ، رحمة الله عليه .

مكانته وصحبته

جاء الإسلام وأبو عبيدة فى فتوة شبابه ، وبواكير رجولته ، فقد أشرف سنه على الثلاثين أو كاد .

وكان فتى شديد الأيد ، واضح الرجولة ، مهاب الطلعة ، فقد أجمع الرواة على وصفه بأنه كان طوالا عريض المنكبين ، يميل قليلا إلى النحافة وتوصف ملامحه بالوسامة ، شجاعا مشرق الفكر عبقرى الرأى ، عرف بالصدق والأمانة ، والترفع عن ما يشين الرجل الأبى الكريم ، محترما فى قريش مستشارا فى حوادثها ، مقربا إلى القلوب ، هين لين كريم بشوش سمح طلق الوجه أبدا ، حتى ليجعله عبد الله بن عمر ، ثالث ثلاثة فى قريش انتهى إليهم الفضل والنبل والخلق الرفيع فيقول :

« ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها ، وأحسنها أخلاقا ، وأثبتها جنانا ، إن حدثوك لم يكذبوك ، وإن حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح » .

كما عرف باللين والدهاء ، فهو رجل قريش الذى تطمئن إليه عند الأحداث والمنازعات حتى ليصفه داهية قريش ، عمرو بن العاص بما يشبه التفرد فى الدهاء ، وإذا وصف عمرو رجلا بالدهاء فحسبه تلك الشهادة . يقول عمرو :

« داهيتا قريش فى الجاهلية والإسلام ، أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح »

كان أبو عبيدة من أبرز المعجبين بمحمد الأمين قبل البعثة ، فقد حببه إليه خلقه النبيل الرفيع وإعراضه عن لهو قريش ومباذلها ، فلما جاء الإسلام كان فى طليعة المؤمنين السابقين ، الذين اصطفاهم الله ، ليكونوا هالة للنور المحمدى .

وصادف الإسلام فيه معدنا نقيا طاهرا ، واستعدادا كبيرا للتذوق والفهم والإحاطة ، فأصبح من أعلام الدعوة مكانة وخلقا وتضحية ، وشمله الرسول برعايته ومحبته ، فأقبل على الرسول بروحه وقلبه وعواطفه ، وتعلق به ولازمه ، وامتزج بآدابه وسننه ، وتطبع بصفاته وشمائله .

أخلص أبو عبيدة الود للرسول ، إخلاصا كاملا ، بل تعلق به تعلق المحب الوامق ، أو التابع الأمين ، المعجب بقائده وهاديه ، الحريص على ترسم خطاه ، والتخلق بهداه ، والتعلق بأوامره ونواهيه .

والإعجاب بالبطولة والتعلق بها ، والتخلق بصفاتها علامة صادقة ، من علامات القلوب الكبيرة ، والنفوس القوية المستعدة ، أو كما يقول كارليل « قبل أن تكون بطلا ، يجب أن تكون من عشاق الأبطال » .

وكان الرسول صلوات الله عليه ، يصطفيه ويؤثره بصداقة ومحبة ، أو إن شئت الدقة ، فبألوان من الصداقة والمحبة ، لم يمنحها لسواه .

وقد يكون للانسان صداقات متعددة كلها عزيز وحبيب وأثير ، ولكنه لا يمزج إحداها ببيته فى أرهف وأدق خصوصياته ، إلا إذا ارتفعت تلك الصداقة وسمت وامتزجت بأنبل ما تفيض به القلوب ، من ود ومحبة وصفاء .

روى فى الحديث عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان بينى وبين الرسول صلى الله عليه وسلم كلام ، فقال من ترضين بينى و بينك ، أترضين بأبى عبيدة بن الجراح ؟ قلت لا ، ذلك رجل هين لين ، يقضى لك فقال : أترضين بأبيك ؟ قلت نعم » .

وفى هذا الحديث شرح كبير للون الصداقة والمحبة ، التى كانت بين الرسول وأبى عبيدة ، فما كان الرسول ليدخل بينه و بين زوجه ، إلا أقرب الناس إلى قلبه و إلى ثقته و إلى حبه .

وهذه عائشة تشهد له بأنه الهين اللين ، ثم تعطف بأنه إجلالا للرسول وحبا ، سيقضى له ، لأنه يؤمن بأنه على الحق أبدا .

ولما أبته عائشة لم يخطر للرسول بعده ، إلا أبو بكر ، والدها وصفيه وخليله ، وصحبة أبى عبيدة للرسول هى صحبة الصديق الكريم ، والتابع الأمين ، صحبة المحب المتفانى فى مثله الأعلى الذى يهب رسالة قائده ، أهله وماله وحياته ، فى غير منّ ولا تردد .

ولمس الرسول صلوات الله عليه ، أخلاقه و إيمانه ووفاءه ، فاصطفاه صاحباً وأميناً ، يطمئن إلى صحبته ، ويسر بوفائه ، ويستعين بأمانته ، كما يستعين بقوته .

بل كان الرسول صلوات الله عليه يعجب بأخلاقه ، ويباهى بمودته وإخائه ، وحسبنا للدلالة على تلك المعانى ، الحديث المأثور عن أبى بكر الصديق ، قال رضوان الله عليه :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأبى عبيدة ثلاث كلمات ، لأن يكون قالهن لى أحب إلى من حُمْر النعم . قالوا : وما هن يا خليفة رسول الله ؟ قال : كنا جلوسا عند رسول الله ، فقام أبو عبيدة ، فأتبعه رسول الله ببصره ثم أقبل علينا ، فقال « إن ههنا لـكتفتين مؤمنتين » .

وخرج علينا رسول الله ونحن نتحدث فسكتنا ، فظن أننا كنا فى شىء كرهنا أن يسمعه فسكت ساعة لايتكلم ، ثم قال « ما من أصحابى إلا وقد كنت قائلا فيه لابد ، إلا أبا عبيدة » .

وقدم علينا وفد نجران ، فقالوا يا محمد ، ابعث لنا من يأخذ لك الحق و يعطيناه ، فقال والذى بعثنى بالحق ، لأرسلن معكم القوى الأمين .

قال أبو بكر ، فما تعرضت للإمارة غيرها ، فرفعت رأسى لأريه نفسى فقال قم يا أبا عبيدة فبعثه معهم .

وقوله صلى الله عليه وسلم « ما من أصحابى إلا وقد كنت قائلا فيه لابد إلا أبا عبيدة » يعطى صورة صادقة للمودة الصافية التى ربطت بين الرسول وصاحبه ، وللتسليم المطلق ، والإيثار الكامل والامتزاج التام ، الذى كان طابع أبى عبيدة فى صِلاته بالرسول .

سئلت عائشة رضى الله عنها ، أى أصحاب رسول الله ، كان أحب إلى الرسول ؟ فقالت أبو بكر ، قالوا ثم من ؟ قالت عمر بن الخطاب ، قالوا ثم من ؟ قالت أبو عبيدة بن الجراح ، قالوا ثم من؟ فسكتت «أخرجه الترمذى ، وقال حسن صحيح » .

وفى رواية مسلم «أنها سئلت ، من كان رسول الله مستخلفا لو استخلف؟ قالت : أبو بكر ، فقيل لها ثم من؟ قالت عمر بن الخطاب ، فقيل لها ، ثم من بعد عمر؟ قالت أبو عبيدة بن الجراح» .

ونسرف إذا تتبعنا ما روى عن صِلاته بالرسول ومكانته من الدعوة ، ومن المحبة لدى رسول الله ، وحسبنا للدلالة ، أنه تفرد بين المسلمين ، بأنه أمين الله وأمين رسوله ، وأمين المؤمنين .

وتلك مكانة عرفها له المسلمون حتى رشح للخلافة ، وهى أخطر وظائف الأمة الإسلامية وأعلاها منذ يومها الأول .

فقد رشحه عمر للخلافة يوم السقيفة ، لولا أن نهره أبو عبيدة قائلا : «أتبايعنى وفيكم ثان اثنين» ورشحه أبو بكر أيضاً فى ذلك اليوم قائلا مخاطباً للأنصار «لقد رضيت لكم أحد الرجلين ، عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح» .

وهتف عمر وهو فى غمرات الموت : لو أدركت أبا عبيدة لاستخلفته وما شاورت ، فإن سئلت عنه قلت : استخلفت أمين الله ، وأمين رسوله .

وأبو عبيدة وإن لم يرتد رداء الخلافة ، فقد كان له فى نفوس المسلمين مكانة تكاد تضارعها أو تقاربها ، فلم يقدموا عليه أحداً قط ، حتى ليغضب عمر بن الخطاب ، من عمرو بن العاص إذ يطلب منه التوسط عند الخليفة ليوليه على جيش الشام وفيه أبو عبيدة ، فيقول له «ما يوافقنى أن يبعثك على أبى عبيدة ، وأبو عبيدة أفضل عندنا منزلة منك» .

وعند ما أراد أبو بكر أن ينتفع بعبقرية خالد الحربية فى الشام ، كتب إلى أبى عبيدة « إنى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه » .

ويتحرج خالد من إمارته على أبى عبيدة فيكتب إليه « أنت على حالك الذى كنت عليه ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع أمرا دونك ، فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك » .

ولم يبلغ أبو عبيدة تلك المكانة العليا ، لسابقته وصحبته فحسب ، بل أضيف إلى هذه وتلك خلال وصفات ، تفرد بها ، وتفردت به ، عرف عنه فوق الحب الصافى للرسول ، والفهم الرائق للاسلام ، الزهد والتقشف والعدالة ، والمحبة الشاملة للانسانية ، والحنان الرحيم بالمسلمين ، تلك الصفات التى جعلته إماما ومرشدا ومؤمنا زاهدا ، خالى اليد ، إلا من عقيدته ، فعاش قانعا بها هى رأس ماله ، وهى منصبه وجاهه وسلطانه ، بل كادت أن تكون طعامه وفراشه

كان الإسلام لديه عقيدة ومزاجا ، وعبادة وهواية ، ففنى فى معانى الإسلام ، واستجابت روحه لدقائقه وأسراره ، ومعانيه وأهدافه حتى غدا صورة صادقة للدعوة الجديدة ، وعلما واضحا يدل عليها ، ويرشد إلى أقصى ما تستطيع أن تصنع بالرجال ، وتسمو بالمؤمنين .

كان الإيمان لديه قوة حية متدفقة فى أعصابه وشعوره وأحاسيسه ووجدانه ، قوة تطبع حياته وتلونها وتسيرها إلى الوجهات والأهداف التى تحددها تلك القوة .

وكان محراب العبادة لديه يشمل الحياة بأسرها ، فهو عابد فى حربه ، وفى حديثه ، وفى معاملاته ، كما هو عابد فى صلاته ، ونسكه ، وقرآنه .

كانت الحياة لديه عبادة على أرحب معانى تلك الكلمة ، وكانت العبادة تضفى على حياته الألوان والظلال ، فما خلا جانب من حياته ، من روح العبادة ومعناها .

فهو صورة العابد المثالى ، لا عابد المحراب والمسبحة ، بل عابد الميادين ، العابد المكافح الفاتح ، المساهم فى أحداث الدنيا ، ومواقف التاريخ .

زهده وتواضعه

الزهد فى معناه الكامل ، شجاعة و بطولة ، لأنه إعراض عن متاع الدنيا ، وانتصار على شهوات النفس وأهوائها .

ومن أعرض عن الدنيا استهان بها ، واستهان بالموت ، وقد روى عن الرسول صلوات الله عليه « لولا أن الله أذل ابن آدم بثلاث ، ما طأطأت رأسه لشىء ، الفقر والمرض والموت » .

فمن لايرهب الفقر والمرض والموت ، فهو العزيز الأبى ، المرفوع الرأس الموفور الكرامة .

وقديما قال ديوجنيس الفيلسوف ، للإسكندر المقدونى : أنت عبد عبدى ، قال لماذا ؟ قال : أنت تحكمك شهواتك وأهواؤك ، وأنا أحكم شهواتى وأهوائى .

ويخطى من يظن ، أن الزهد ضعف وهزيمة ، ولصوق بالأرض ، ورضاء بالذل ، وخناعة للظلم ، فالزاهد شجاع جرىء ، كريم أبى ، ومجاهد سمح بالمال والنفس ، غير ضنين بها ، يوم الروع والجلاد .

وإنما أسىء فهم الزهد ، يوم أن ادعته طائفة ، عاجزة مرائية ، قعد بها الضعف والهوان فتسترت بالزهد والإيمان ، وتلك أبغض الصفات إلى الإسلام .

ورضى الله عن عمر بن الخطاب ، فقد كان يبغض من يتوانى ، ليقال

إنه متوكل على الله ، أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك ، أو يفرط في العبادة ، ليقال إنه زاهد في الدنيا ، وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع في الدين . نظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت ، فخفقه بالدرة وقال لا تُمت علينا ديننا أماتك الله ، وكان كلما رأى شابا ، منكسا رأسه ، صاح ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد عما في القلب ، فمن أظهر للناس خشوعا فوق ما في قلبه ، فإنما أظهر للناس نفاقا .

كان زهد الزاهدين في صدر الإسلام ، زهد الأقوياء المعرضين عن الدنيا ، وقد دانت لهم وخضعت لسطوتهم ، زهد السادة ، القادرين الحاكمين ، المترفعين عن المتاع الزائف ، والجاه المصنوع .

ولم يقعد بهم الزهد ، عن القوة والبأس ، والكفاح والعمل ، كان الزهد لديهم عبادة لا صناعة ، وغاية لا وسيلة .

والزهد والقناعة ، والاستهانة بمتاع الدنيا ، من صميم الفكرة الإسلامية لأن النفس إذا استسلمت للملاذ ، وأقبلت على المتاع ، تطرق إليها الوهن ، وغلبتها الأهواء ، فباعدت بينها و بين السماء . وفي حياة الرسول وهو الإمام الأعظم لصحابته ، أمثلة نابضة بالحياة والقوة تدل على الزهد ، والبعد عن مظاهر الحياة ونعيمها ، وقد دخل عليه عمر بن الخطاب ، فوجده على حصير ، قد أثر في جنبه ، فكلمه في ذلك ، فقال مهلا يا عمر ، أتظنها كسروية ؟ .

وتقول عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله وما في بيتي شيء

يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير فى رق لي . وعنها : كان يأتى علينا الشهر ما نوقد نارا ، إنما هو الماء والتمر .

وقد استطاع الرسول ، أن يربى فريقا من صحابته على هذه الآداب ، حتى تخلقوا بها ، فاستطابوا ذلك الحرمان ، وهذا الإعراض ، استطابة كانت لديهم أحلى وأغلى وأشهى من كل متاع وعطاء .

روى أحمد فى مسنده : أن أبا عبيدة دخل عليه إنسان وهو يبكى ، فقال مايبكيك يا أبا عبيدة؟ فقال يبكينى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما ما يفتح الله على المسلمين ، حتى ذكر الشام فقال :

« إن ينسأ فى أجلك يا أبا عبيدة ، فحسبك من الخدم ثلاثة : خادم يخدمك ، وخادم يسافر معك ، وخادم يخدم أهلك ، وحسبك من الدواب ثلاثة ، دابة لرحلك ، ودابة لثقلك ، ودابة لغلامك » .

ثم أنا أنظر إلى بيتى ، قد امتلأ رقيقا ، وأنظر إلى مربطى قد امتلأ خيلا ودواب ، وكيف ألقى رسول الله بعد هذا ، وقد أوصانا رسول الله ، أن أحبكم إلى وأقربكم منى ، من لقينى على الحال التى فارقنى عليها .

بكى أبو عبيدة ، ولم يكن المال الذى فى بيته ، إلا نصيبه وسهمه فى الجهاد ، ولكن لم يأت المساء ، إلا والدار كعهدها خالية ، إلا من الإيمان والقناعة .

كان أبو عبيدة يتخلق بأخلاق الرسول ، ويحب أن يلقاه على الحال التى يحب ، على الحال التى تركه عليها ، وهذا اللقاء ، وهذا الحب ، أرفع مكانة لديه من الدنيا بأسرها .

كان أبو عبيدة فاتح الشام وأميره ، بما فى الشام من مال ومتاع ، أروع أمثلة الزهد فى عصره ، وأروع أمثلة التواضع بين صحبه .

أخرج الجزرى فى أسد الغابة ، وابن عساكر فى تاريخه عن هشام ابن عروة ، قال : قدم عمر بن الخطاب الشام لفتح بيت المقدس ، فتلقاه أمراء الأجناد ، وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر أين أخى؟ قالوا من ؟ قال أبو عبيدة بن الجراح ، قالوا يأتيك الآن ، قال فجاء على ناقة مخطومة بحبل فسلم عليه وسأله ، ثم قال للناس انصرفوا عنا ، فسار معه حتى أتى منزله ، فنزل عليه ، فلم ير فى بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر لو اتخذت متاعا ، أو قال شيئا ؟ قال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل .

وفى رواية عن ابن عمر : أن عمر حين قدم الشام ، قال لأبى عبيدة اذهب بنا إلى منزلك ، قال وما تصنع عندى؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك على ، قال فدخل منزله ، فلم ير شيئا ، قال أين متاعك ؟ لا أرى إلا ابدا وصحفة وشنا ـ قربة ـ وأنت أمير، أعندك طعام ؟ فقام أبوعبيدة إلى جونه ـ سلته ـ فأخذ منه كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصر عينيك على يا أمير المؤمنين ! يكفيك ما بلغك المقيل ، قال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

بكى عمر ، القوى الزاهد ، لهذا الزهد الغالب ، وهو الذى قاسم ولاته أموالهم ، ولم يستثن منهم أعلام الصحابة ، كسعد بن أبى وقاص ، وخالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص .

روى ابن عساكر : أن عمر أرسل إلى أبى عبيدة أربعة آلاف درهم أو أربعمائة دينار وقال للرسول : أنظر ما يصنع ؟ فقسمها أبو عبيدة فى جنده ولم يبق شيئا لأهله ، ثم أرسل بمثلها إلى معاذ ، فقسمها معاذ ، إلا شيئا قالت له امرأته نحتاج إليه .

فلما أخبر الرسول عمر ، قال : الحمد لله ، الذى جعل فى الإسلام من يصنع مثل هذا . وبمثل هذا تقوم الأمم ، وتسود الدعوات .

قنع أبو عبيدة فى حياته بما يسد الرمق ، أو بما يبلغه المقيل كما يقول ، وأعرض عن الدنيا التى فتحت أبوابها للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، أعرض ونأى بجانبه ، فهو ينشد رضوان الله ، ينشد أن يلقى رسول الله ، كما تركه بريئا من الدنيا ، وهو الذى سمع رسول الله يقول لأصحابه « ما أخشى عليكم شيئا أكثر من خيرات الدنيا العاجلة ، وما عند الله خير وأبقى » .

وعرف أبو عبيدة بالزهد ، حتى لقب بزاهد المسلمين ، كما عرف باللين والتواضع ، والزهد أليف التواضع وصاحبه .

والتواضع فى أبى عبيدة ، صفة أصيلة لازمته طوال حياته ، حتى قبل إسلامه ، فلما جاء الإسلام ازداد تواضعه رقة : وازدان بالرحمة .

بعثت الروم إلى أبى عبيدة ، إنا نريد أن نبعث إليك رجلا منا ، يعرض عليك الصلح ويدعوك إلى النصف ، فإن قبلت منه ، فلعل ذلك يكون خيرا لك ولنا ، وإن أبيت فما نراه إلا شرا لك ، فقال لهم ابعثوا

من شئتم ، فبعثوا رجلا طويلا ، أحمر أزرق العينين فجاء ، فلما دنا من المسلمين لم يعرف أبا عبيدة من القوم ، ولم يدر أهو منهم ، أم لا ، فقال يا معشر العرب ، أين أميركم ، فقالوا ها هو ذا ، فنظر فإذا هو بأبي عبيدة جالسا عليه الدرع ، وهو ممسك بفرسه ، و بيده أسهم يقلبها وهو جالس على الأرض ، فقال له أنت أمير هؤلاء ؟ قال نعم ، قال ما يجلسك على الأرض ، أرأيت إن كنت جالسا على وسادة ، أو كان تحتك بساط ، كان ذلك واضعك عند الله ، أو هل يبعدك من الإحسان ؟ قال له أبو عبيدة : إن الله لا يستحي من الحق لأصدقنك ، ما أصبحت أملك إلا فرسي وسيفي وسلاحي ، ولقد احتجت أمس إلى نفقة فاقترضت من أخي هذا ــ يعني معاذ بن جبل ــ ونحن عباد الله نمشي على الأرض ، ونجلس عليها ونأكل عليها ، ونضطجع عليها وليس ذلك بناقصنا عند الله شيئا ، بل تعظم به أجورنا ، وترفع به درجاتنا ، فهلم حاجتك التي جئت إليها .

إنه تواضع من يسير في موكب النبوة ، لا تحت ظلال القيصرية أو الكسروية ، تواضع يقصد به رضاء الله ، وأن يعظم به الأجر ، وترفع به الدرجات ، كان الهدف والغاية ، هو العبادة والطاعة ، أما مظاهر الحياة ، فمتاع زائل ، وعرض زائف .

كان شعار أبو عبيدة ، العزة بالله ، فمن التمس العزة بغيره ذل ، وكان يشعر في تواضعه بعزة ، وفي زهده بغنى .

كان غنيا مفرط الغنى فى زهده ، لأنه استغنى عن كل شىء ، إلا ما يمسك الرمق ويبلغ المقيل ، وهو بتلك القناعة ، أغنى الأغنياء ، وبهذا التواضع ، أعز الأقوياء .

ما كل ما فوق البسيطة كافياً   فإذا قنعت فكل شىء كاف

كانت قناعته ، قناعة الملوك ، وكان تواضعه تواضع المؤمنين ، وتلك سمات الخالدين ، من أصحاب العقائد .

مثاليتـــه

قال الجاحظ فى وصف البلاغة « هى الـكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، وتنزه عن التكلف » .

وقد كان أبو عبيدة أشبه بالـكلام البليغ ، قليل المظاهر ، كثير المعانى طبع على الفضائل ، وتنزه عن التكلف .

كانت أخلاقه وحدة متناسقة الجمال ، لايعتريها نقص ، ولا يشوبها شذوذ ، بساطة خلت من الرياء والتصنع ، ولين ورحمة يغمر بهما الحياة ، فى غير منّ ولا ترفع ، و بُعد عن المهاترات والخصومات ، وتعفف عن متاع الحياة وزينتها ، تعفف المالك القادر ، و إعراض القوى الزاهد .

روى أبو حذيفة « إسحاق بن بشر » أن طوائف من أحياء العرب كانت تأتى من عامة الآفاق إلى أبى بكر إمداداً للمسلمين ، فيستعمل عليهم الرجل منهم ، ويخيرهم أن يمضوا إلى أى أمرائه أحبوا ، فإذا قالوا له اختر لنا يا خليفة رسول الله ، قال :

« عليكم بالهين اللين ، الذى إذا ظُلم لم يظلم ، و إذا أسىء إليه غفر ، و إذا قطع وصل ، رحيم بالمؤمنين ، شديد على الكافرين ، عليكم بأبى عبيدة ابن الجراح » .

ذلك هو الخلُق المثالى فى أنبل معانيه ، هين لين ، إذا ظُلم لم يظلم ، و إذا أسىء إليه غفر ، و إذا قطع وصل .

وقد يرسل أحدهم صيحة بأن الإساءة تدفع بالإساءة ، والظلم يرد بالظلم ولكن آية الرحمن ستظل أبد التاريخ ، عنوان المثالية الأخلاقية « وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

كان خلُق أبو عبيدة فى صِلاته بالناس هو هـذه الآية ، لا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ومجادلة بالتى هى أحسن ، ومعاملة الناس بكل جميل كريم ، فكانت العاقبة أن أبا عبيدة كان أحب المؤمنين إلى المؤمنين .

كان يملأ الدنيا حبا ورحمة ، فغمره الناس بالحب والإجلال ، كان يعطر الدنيا بشذى السماحة والرضا واللين ، والكلمة الطيبة ، والرحمة الشاملة ، فأصبح بين أصحابه عطراً ونوراً ومثالا كريما ترنو إليه الأبصار ، وتخشع القلوب .

قال معاذ بن جبل فى رثائه :

« والدين العظيم ، إنكم أيها المسلمون فجعتم برجل ، ما أزعم أنى رأيت أبرَّ صدراً ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حبا للعامة منه » .

كان برىء الصدر والقلب من أمراض الحقد والحسد ، عامر القلب والصدر بالمحبة والرحمة .

وبراءة القلب معراج إلى السماء ، ومفتاح سحرى لأبواب الجنة ، فقد روى عن عبد الله بن عمر أنه سمع رسول الله صلوات الله عليه يصف رجلا من المسلمين بأنه من أهل الجنة ، فلازمه ثلاثة أيام لينظر ما يفعل ، فلم ير

فى أعماله شيئا يفضل به الناس ، فسأله ماذا فعلت يا أخى ؟ حتى أصبحت من أهل الجنة كما يقول الرسول ؟ قال لاشىء أكثر مما ترى ، و إن كنت أرجو من الله شيئا ، فهو أننى ما حملت فى صدرى لأحد من الناس حقدا ولا موجدة ، فقال عبد الله : بهذا دخلت الجنة .

كان أبو عبيدة يعيش بين الناس ، ويخطر على الأرض ، وأبواب السماء تخايل عقله وقلبه وتوجه عواطفه وأحاسيسه ، فتطبعه بطابع القرآن ، خلقا وعملا وهدفا .

لما توفى أبو بكر ، وخالد على الشام والياً ، واستخلف عمر كتب إلى أبى عبيدة بالولاية على الشام ، وعزل خالد فكتم أبو عبيدة الأمر ، ثم علم خالد بعد ذلك بعشرين ليلة ، فدخل على أبى عبيدة فقال : يغفر الله لك جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى، وأنت تصلى خلفى والسلطان سلطانك فقال أبو عبيدة : يغفر الله لك ، ما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، و إن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ، و إنما نحن إخوان ، وما يضير الرجل أن يلى عليه أخوه فى دينه ولا دنياه ، بل يعلم الوالى أنه يكون أدناهما إلى الفتنة ، وأوقعهما فى الخطيئة لما يعرض له من الهلكة ، إلا من عصم الله عز وجل ، وقليل ما هم .

ما سلطان الدنيا أريد ؟ وما للدنيا أعمل . ذلك هو شعار أبو عبيدة ، ومفتاح نفسه والمحور الذى دارت حوله حياته ، وتلونت به أخلاقه وصفاته وكلماته .

خطب يوما بين الصفوف فقال « ألا رب مبيض لثيابه ، مدنس لقلبه ودينه ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين » وخطب عند ما ولى الشام فقال « يا أيها الناس ، إنى امرؤ من قريش ، وما منكم من أحد ، أحمر ولا أسود ، يفضلنى بتقوى ، إلا وددت أنى فى مسلاخه ـ جلده ـ .

ومن مواقف العقول فى حياة أبى عبيدة الإجماع التام على حبه من معاشريه ومعاصريه ولعله الوحيد بين القادة ، الذى كتب له فى التاريخ هذا ، فما روى أنه خاصم أو نازع إنسانا فى حياته ، بل إنه لم يقل كلمة واحدة نابية أو قاسية ، وكيف يخاصم ، أو يقسو لفظه ، وهو الهين اللين الذى إذا أسىء إليه غفر ، وإذا قطع وصل ، وإذا ظُلم لم يظلم ، رحيم بالمؤمنين كما قال أبو بكر الصديق ، وهو أشد قريش حياء ، إذا حدث لم يكذب ، وإذا حدثه إنسان لم يكذبه كما يقول عبد الله بن عمر :

إذا حدثه إنسان لم يكذبه ولو كان كاذبا ، وهذا أسمى صفات الكمال. ولعلنا لا نسرف إذا قلنا إن الجانب الأخلاقى فى حياته ، هو المثال الصادق لأخلاق المسلم المثالى .

كان إيمانه وإعجابه بالرسول صلوات الله عليه يدفعانه إلى التشبه به والتخلق بآدابه وصفاته ، فالرسول هو أسوته الحسنة ومثله الأعلى ، هو النور الذى يهدف إلى ساحته ليستضىء ، والرحيق الذى ينشده ليرتوى ، وللرسول روحانية غلابة ، من دخل فى نطاقها قبس من هداها .

كان أبو عبيدة « مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » .

كان سطرا جميلا متلألأ فى صحيفة الإسلام ، سطرا جميلا مشرقا فى عالم الأخلاق والمثالية ، كان من الذين قال فيهم الرحمن « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » .

وقد عبر الرسول صلوات الله عليه عن مثاليته ، بصفة من صفات النبوة ، هى جماع صفات الأنبياء ، وهى جماع ما يقال فى مثاليته « لكل أمة أمين ، وإن أميننا هو أبو عبيدة بن الجراح » .

* * *

وقد تميز ابن الجراح بهذا اللقب الجميل « الأمين » فأصبح علما ، وصفة لازمة غالبة على اسمه وأعماله .

وقد أثرت عنه هذه الأمانة بين الصحابة فكانوا يتشككون فى كل أمر من أمور دينهم يبلغهم على غير لسان نبيهم صلوات الله عليه إلا أبا عبيدة ، فقد كانت روايته هى الفيصل وشهادته هى النبأ اليقين .

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسأله عن أمر من أمور الدين ، ثم قال لقد روى لى أبو عبيدة حديثا عن رسول الله فصاح به عمر، لقد حدثك الصادق الأمين ، لقد حدثك الصادق الأمين . فلا تبغى بعد حديثه هدى . . .

لقد كان أبو عبيدة — الأمين — بين جيل من الناس هم أقرب أهل الأرض إلى السماء ، وأكرم من عرف الوجود خلقاً وصدقاً وأمانة . فتفرده بينهم بهذا اللقب الكريم الذى أضفاه الرسول عليه ، شهادة ترجح بكفته فى موازين الأخلاق ، وعالم المثالية . . .

عبقريته

يقول « رومان رولان » أكبر دعاة السلام فى فرنسا « الموهوبون كثيرون فى التاريخ ، ولكن قلة منهم عملت للخير ، بينما نسجت أنامل كثير منهم الشر والنكبات للعالم » .

وتلك كلمة حق ، فكثير من العباقرة ، أطلقوا لهب الشر والشقاء على الإنسانية ، وكثير منهم كان التاريخ بدونهم ، أكثر إشراقا ورحمة وسلاما .

وأبو عبيدة يأتى فى طليعة تلك القلة ، التى أضاءت موكب التاريخ ، فقد كان خيرا خالصا شعاره المحبة والسلام ، وآيته الرحمة والصفاء .

كانت عبقريته تتجلى فى خلقه العف الكريم ، وفى ضميره الطاهر النقى الرحيم ، وفى إعراضه عن الأهواء والنزوات والخصومات ، وفى حبه الشامل للناس كافة ، وفى سعيه الدائم للصفاء والسلام .

وإذا أردنا تحديد السمة التى تبرز فيها عبقريته ، فهى سمة الدبلوماسى الماهر ، اللين الهين ، المحبب إلى القلوب ، السريع التآلف مع الأرواح ، الذى تواتيه الكلمات الصائبة الحاسمة إذا ثارت النفوس ، أو تعقدت المشاكل .

كان أبو عبيدة ذا طبيعة دبلوماسية ، ما واجه غاضبا إلا أرضاه ،

ولا ثائرا إلا أقنعه وهدأ ثورته ، ولا نجمت مشكلة شائكة حساسة ، إلا نسج لها سبلا للسلام والصفاء .

وتاريخه حافل ناطق بتلك العبقرية ، فقد حمل راية السلام يوم السقيفة ، وهو من الأيام الفاصلة فى التاريخ ، إذ ثار الأنصار ، وتطلعوا إلى الخلافة ، وهددوا بأن يعيدوها جذعة ، وغضب عمر ، والتهبت كلماته ، واشتبك بالحباب بن المنذر ، فهتف أبو عبيدة بكلمة حاسمة ـ طرقت من قلوب الأنصار ، ناحية الإيمان ـ « يا معشر الأنصار ، كنتم أول من نصر وأيد ، فلا تكونوا أول من بدل وغير » .

و بتلك الكلمة اللينة المشرقة ، ابتدأت غضبة الأنصار تثوب إلى الرشد ، وابتدأ طريق السلام والصفاء ، ورب كلمة طيبة أقامت من الملك ، ما تعجز عنه الجيوش .

ووساطته بين الصديق وعلى بن أبى طالب ، صورة أخرى من صور الدبلوماسية البارعة بأساليبها الناعمة المرهفة ، التى ترضى الغاضب ، وتثوب به إلى الهدى ، وهل هناك عبارة توجه إلى على فترضيه ، مع توضيحها للحق أرق من تلك الكلمات .

يا ابن عم إنك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ، ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر ، فإنك إن تعش ، ويطل بك بقاء ، فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق فى فضلك ودينك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك ، فما يكون جواب على إلا قوله « لن ترى منى إلا ما يسر ، ولن يرى أبو بكر إلا مايرضيه » .

وكتب عمر إلى أبى عبيدة ، أن يقاسم خالد بن الوليد ماله ، فأبى خالد القائد المنتصر وثار ولم يقابل أبو عبيدة الثورة الجامحة بقوة السلطان بل عمد إلى السماحة واللين والبيان ، فأرضى فارس الميدان الإسلامى ، حتى أضاء وجهه وابتسمت ثناياه ، وأرضى الخليفة وأنفذ أمره .

ذكر أبو عبيدة خالدا ، بمواقفه المشرفة فى الجهاد ، وبمكانته من الإسلام والإيمان ، وبحقوق الخليفة ، ووحدة المسلمين ، حتى لانت الجوانب العصية ، فأطاع ورضى ، فاعتقله بعمامته كما أمر عمر، ونزع قلنسوته ، ثم قاسمه ماله ، حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا ، فأبى خالد ، أن يأخذ النعل وأصر على قسمته ، فأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى ، وبذلك انقلبت ثورة خالد ، إلى الرضا الكامل ، حتى ليغدو أشد من أبى عبيدة تطرفا فى قسمة ماله شطرين .

وصفات الدبلوماسيين هى الصفات الغالبة على أبى عبيدة ، فقد عرف بتحرجه وحذره فى الرواية عن الرسول ، كما عرف بقلة الكلام فى خطبه ورسائله ، فكانت جمله تأتى قصيرة دقيقة .

كتب إليه عمر يقول « أخبرنى عن حال الناس ، وأخبرنى عن خالد ابن الوليد ، أى رجل هو؟ وأخبرنى عن يزيد بن أبى سفيان وعمرو ابن العاص ، وكيف حالهما ونصيحتهما للمسلمين ؟ .

فكتب إليه « خالد خير رجل وأنصحه للمسلمين ، وأشده على عدوهم ، وعمرو ويزيد ، نصحهما وجدهما كما تحب .

وتلك كلمات تقصد إلى هدفها كالسهام ، قد وزنت وقدرت ، فى غير إسراف ولا إجحاف ، وتلك سمات أهل السياسة والكياسة .

وسياسته فى قيادته ، امتازت بالتواضع والزهد فى الصدارة ، والابتعاد عن مظاهر الإمارة ، بل كان يسره أن يترك الدوى والرنين لغيره ، وبينما كانت صيحات الشكوى والتذمر ، تنطلق إلى عمر فى المدينة ، من قواد العراق ، ضد قائدهم العام سعد بن أبى وقاص ، لم يرتفع صوت واحد من جيش الشام ضد القائد العام ، بل كان الإجماع تاما على محبته والرضا بتصرفاته وشمائله ، مع أنه كان يتولى الإمارة على صفوة القواد وكبار رجال السيف ، فقد جرت السياسة الحربية الإسلامية على أن تحشد فى الشام لمواجهة الروم ، زهرة المجاهدين وأكفأ القواد ، وحسبك خالد وعمرو ابن العاص ويزيد بن أبى سفيان ومعاوية ومعاذ وأضرابهم ، وسياسة هؤلاء الدهاة وقيادتهم فى حاجة كبرى ، إلى الدهاء وأساليب العبقرية الدبلوماسية ، ولسنا نعنى بذلك أن أبا عبيدة لم يكن من أبطال الميدان ، وكبار القواد ، فتاريخه وفتوحاته وبطولته أوضح من أن يتطرق إليها الشك ، وإنما نقصد إبراز السمة الغالبة ، واللون المتفوق فى تلك النفس الرحبة الآفاق ، المتعددة القوى .

وسياسته فى حروبه وفتوحاته أقرب أيضا إلى الطبيعة الدبلوماسية ، منها إلى القسوة العسكرية فقد رد إلى أهل حمص أموال الجزية التى أخذها منهم عند جلائه وارتداده عنها قائلا « لقد عجزنا عن حمايتكم فلا حاجة لنا فى أموالكم » فكان لتلك المعاملة الكريمة السخية رنة فى الشام

بأسره ، ودوى يتحدث بشمائل العرب وسماحة الإسلام ، كان له الأثر البعيد فى محبة الفاتحين وانتصارهم .

وصالح أبو عبيدة بلدة « السامرة » وكان أهلها من اليهود على أن يكونوا عيونا وأدلاء للمسلمين وأعفاهم فى مقابل ذلك من الجزية ، فكان اليهود بتلك المعاملة ، عيون المسلمين المبصرة المرشدة فى المدن السورية كافة .

فإذا أضيف إلى تلك الصفات تواضعه ، وزهده ، ونفوره من الكبرياء والادعاء ، وكراهيته للسيادة والغطرسة ، وميله الفطرى إلى اللين والمحبة والمسالمة ، كملت له أنبل صفات الدبلوماسيين ، وأخطر مؤهلاتهم ، وأزهى ألوان العبقرية بين صفوفهم .

أمنية غالية

قال عمر بن الخطاب يوما لأصحابه : تمنوا ، فقال رجل أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبا أنفقه فى سبيل الله ، عز وجل ، فقال تمنوا ، فقال رجل أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤا وزبرجدا وجوهرا أنفقه فى سبيل الله عز وجل ، وأتصدق به ، ثم قال تمنوا ، فقالوا ما ندرى ما نقول يا أمير المؤمنين !.

قال عمر : ولـكننى أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالا مثل أبى عبيدة فقالوا ما ألوت الإسلام ـ أى ما نقصته ـ حقه ، فقال ذاك الذى أردت .

أمنية غالية يتمناها عمر العظيم ، وأمنية العظيم عظيمة وجميلة ، بل فاتنة الجمال ، فاتنة الخيال ، وأى حلم أشد فتنة من أن ندلف إلى عالم مسحور ، ثم نطرق بابا فيفتح فنشاهد دار الخالدين ، مملوءة برجال من طراز ابن الجراح خلقا ومثالية و إيمانا و بطولة .

لقد تمنى أصحاب عمر أمانى من فيض ما تهب الدنيا ، ذهباً ولؤلؤاً وزبرجداً و ياقوتاً ، لينفقوا من هذا الفيض فى سبيل الله .

أما عمر العبقرى فقد تمنى أمنية من فيض السماء ، عبقرية وخلقا ، ورجولة و بطولة ليغزو بهم الدنيا ، ويعلى فى آفاقها كلمة الله ، وشريعة التوحيد .

ماذا يصنع الذهب ؟ وماذا يجدى اللؤلؤ ؟ إذا لم تكن الرجولة والمثالية والبطولة هى القوى الدافعة المحركة .

وهل حمل الذهب يوما علما فى معركة ؟ وهل أقام اللؤلؤ ديناً فى أمة ؟ وهل هذب الزبرجد أخلاق قبيل من الناس ؟

وهل كان العرب يوم انبعثوا من صحاريهم إلى الدنيا ، يحملون تعويذة الذهب واللؤلؤ أم تعويذة المثالية والبطولة ؟

تمنى عمر طرازا مثاليا قويا عبقريا ، لتعتزّ به دعوة الإسلام ، وتنتصر راية التوحيد ، طرازا نسيج وحده ، فلم ير نموذجا للكمال ، تقاس عليه الأمانى المثالية ، إلا أبا عبيدة نسيج وحده خلقا و بطولة ، و إيماناًوتضحية .

تمنى عمر ما تمنى ، وهو يعلم أن البطولة والمثالية ، مشاعل النور للنهضات وأعلام النصر لمن يبغى جهاداً وعزة وخلوداً .

فصيحة الإسلام فى الجزيرة ، لم تعضدها الأموال ، ولم تقم دعائمها على الذهب واللؤلؤ و إنما قامت على سواعد أبطال حملوا الراية فى يمناهم ، والروح فى يسراهم ، وساروا مع الشمس مشرقين ومغربين ، عزيزة دعوتهم ، سائدة رسالتهم ، منتصرة أهدافهم .

رجال وهبوا العقيدة كل شىء ، ففازوا بكل شىء ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين .

جاء أعرابى إلى النبى فأسلم ، ثم قال : أريد أن أهاجر معك ، ثم كانت غزوة غنم فيها النبى شيئا ، فقسم بين أصحابه ، وقسم للأعرابى فقال الأعرابى ما هذا ؟ قال قسمة لك ، قال ما على هذا اتبعتك يا رسول الله ، ولكنى اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا بسهم ــ وأشار إلى حلقه ــ فأموت فأدخل

الجنة ، فأجابه الرسول ، إن تصدق الله يصدقك ، ثم نهضوا لقتال عدو فأتى به إلى النبي محمولا أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي أهو هو ؟ قالوا نعم ، قال صدق الله ، فصدقه ، ثم صلى عليه وقال « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك ، فقتل شهيداً ، وأنا شهيد على ذلك » .

بتلك البطولة المعرضة عن الدنيا ، انتصر المسلمون وهم قلة فى الجزيرة وانتصروا على قوى الأرض تحت راية الفتح والجهاد .

و بينما معركة القادسية تتأرجح بين النصر والهزيمة ، تقدم رجل إلى الملحمة ، فدفع بنفسه بين صفوف الفرس ، فقطعت يداه ورجلاه ، فيراه الراءون يفحص فى التراب ويقول : « مَعَ الَّذِين أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً » ويسئلون من أنت يا عبد الله ، فيجيبهم رجل من الأنصار « مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ » .

وألهبت تلك البطولة قلوب المجاهدين ، فحملوا وكان النصر ، وكانت فارس للاسلام بما فيها من لؤلؤ و ياقوت وزبرجد .

وحاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً ، فندب الناس إلى نقب خطر منه فجاءه رجل فدائى من عرض الجيش فدخله ، ففتح الله عليهم ، فنادى مسلمة أين صاحب النقب ، فما جاء أحد ، فنادى أننى قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتى فعزمت عليه إلا جاء ، فجاء رجل وقال للآذن استأذن لى على الأمير ، فقال له أنت صاحب النقب ، قال أنا أخبركم عنه ، ولما دخل

على مسلمة قال : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثا ألا تسودوا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة وألا تأمروا له بشىء ، وألا تسألوا من هو ، قال فذلك له ، قال أنا هو ، ثم عاد مسرعا .

أى القوتين أعظم ، قوة اللؤلؤ والذهب ، أم تلك القوة الفدائية الوثابة ؟

وأى المعدنين أغلى وأنقى وأبعد أثراً فى الجهاد والفتح وتأسيس الدعوة تلك المعادن البراقة ، أم تلك الدماء المراقة ؟ .

تمنى عمر رجالا كأبى عبيدة ، يكتبون برماحهم حروف التاريخ ، ويرسمون بسيوفهم حدود الممالك ، ويحققون بأخلاقهم رسالة القرآن .

تمنى داراً مملوءة برجال مثل أبى عبيدة ، ولكن السطور التى خطها أبو عبيدة فى صحف التاريخ لم تتكرر ، منذ أنار الله آفاق الحياة ، وما كان لها أن تتكرر ، فليس من علامات الخالدين ، تكرر الصور ، وتشابه الملامح والسمات . . .

طه عبد الباقى سرور نعيم

محتويات الكتاب

الموضوع	الصحيفة
القوى الأمين	٥
وثبة الأبطال .	٧
نشأته و إسلامه .	١٥
حديث النبوة .	١٧
إسلامه .	٢٠
اضطهاد الدعوة .	٢٢
الهجرة إلى الحبشة .	٢٤
أبو عبيدة فى المدينة .	٢٧
العسكرية الإسلامية .	٣١
أبو عبيدة فى بدر .	٣٤
أبو عبيدة فى أحد .	٤٢
أبو عبيدة فى سريتيه .	٤٨
أبو عبيدة وعمرو بن العاص .	٥١
نائب الرسول فى نجران .	٥٥
أبو عبيدة فى حياة النبى .	٥٨
يوم السقيفة	٦٠

الموضـــــوع	الصحيفة
وساطته بين الصديق وعلى .	٦٥
أول وزير للمالية فى الإسلام .	٦٦
فاتح الشـام .	٦٩
الإيمان والفداء .	٦٩
التعبئة العامة .	٧١
أبو بكر يوصى قواده .	٧٢
الزحف .	٧٢
أبو عبيدة يفتح حمص .	٧٣
خالد فى الميدان .	٧٦
اليرموك .	٧٧
المسلمون يدعون إلى السلام .	٧٨
المرأة العربية فى الميدان .	٧٩
القتال .	٨٠
أبو عبيدة يتولى القيادة العامة .	٨٢
فتوحات ابن الجراح .	٨٣
فتح دمشق .	٨٤
أمير الشـام .	٨٦
الإسلام والجزية .	٨٨
رسالة الإسلام .	٨٩

الموضـــوع	الصحيفة
طاعون عمواس .	٩٠
إلى الرفيق الأعلى .	٩٣
وصيته .	٩٣
يبرئ ذمته .	٩٤
معاذ يرثيه .	٩٤
مكانته وصحبته .	٩٥
زهده وتواضعه .	١٠٢
مثاليته .	١٠٩
عبقريته .	١١٥
أمنية غالية .	١٢٠

بعون الله تم طبع كتاب « أبو عبيدة » فى
يوم الثلاثاء ١٦ من رمضان سنة ١٣٦٥
(الموافق ١٣ من أغسطس سنة ١٩٤٦) .

مدير المطبعة
رستم الحلبى

للمؤلف تحت الطبع

أمواج الفكر الإسلامى

عقل العالم والأديب ، هو المعمل الذى تحضر فيه الثورات والانقلابات والملاحم . ثم تندفع المبادئ والأفكار لتقيم حياة وتحطم حياة . .

وتاريخ الإسلام حافل بالثورات الدموية التى مهد لها الفكر والقلم واللسان . ثم وثبت فطنها الناس لواء وحسام .

وقد عرض المؤلف لكل هذه الأحداث التاريخية فصورها ناطقة الظلال والألوان ، منذ عصر الخليفة الثالث إلى العصر العباسى الثالث .

مع مباحث ضافية عن الأشعرية والمعتزلة والباطنية والخوارج وغيرهم من الفرق ، وأثر كل هؤلاء فى توجيهات الفكر والتاريخ الإسلامى .

قلب حواء

القصة الخالدة لآدم وحواء ، مسرحها الأول الجنة حيث يتصارع الملَك والإنسان والشيطان . ثم ينتقل المسرح إلى الكوكب الأرضى فيشرق الجمال والحب ، وتراق الدماء بين أبناء حواء . . وأخيراً تهبط الزهرة فتنة التاريخ ، ويأتى هاروت وماروت بسحرهما ، وتتواثب القلوب المستيقظة على الجمال والحنان ونداء الحياة . إنه قلب حواء ، قلعة السر الخالد . .!!!؟